عظماء منسيون

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الاندلس الخضراء







جدة / هاتف: ٠٢/٦٨١٠٥٧٧
/ فاكس: ٠٢/٦٨١٠٥٧٨
الرياض / هاتف: ٠١/٢٤٨١٧٠٥
/ فاكس: ٠١/٢٤٨١٩٠٥
التوزيع / ٠٥٥٤٤٨١٩٠٥ - ٠٥٤٤٠٤٦٠٦٢

المكتبات: حي السلامة
هاتف - فاكس: ٦٨٤٤٢٠٩
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب: ٤١٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

عظماء منسيون

الجزء الثاني

تأليف

د. محمد بن موسى الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة "عظماء منسيون في التاريخ الحديث"، يحوي تسعاً من تراجم عظماء الرجال الذين كان لهم أثر ظاهر في التاريخ المعاصر، وسرت في منهج سرد تاريخهم على الطريقة نفسها التي سرت عليها في إيرادي تراجم الجزء الأول، الذي فصلت في مقدمته أهمية هذه التراجم وطريقتي في إيرادها وسرد تواريخها، ولا أعود هاهنا لذكر شيء مما ذكرته في مقدمة الجزء الأول لكني أؤكد على شيء واحد فقط ألا وهو الأهمية البالغة للتراجم في تنشئة وتربية الأجيال على الفضائل والكمالات، وأن هذه الأجيال في حاجة ماسة إلى قدوات تقتدي بها، وليس هناك أعظم ولا أجل من أعلام الإسلام ليُقتدى بها ويُتأسّى.

والله أعلم، وهو الموفق، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف
البريد الالكتروني mmalshareef@hotmail.com
الموقع على الشبكة www.altareekh.com

السلسلة الثانية

١. "رجل الحماسة والهمة" عبدالعزيز الثعالبي.

٢. "العالم المجاهد" محمد أمين الشنقيطي.

٣. "القائد البطل" ساموري توري.

٤. "أمير البيان" شكيب أرسلان.

٥. "المجاهد" عمر الفوتي.

٦. "الداعية الأديب" محمد البشير الإبراهيمي.

٧. "المفسر العامل" أبو الثناء الآلوسي.

٨. "المجدد السلفي" محمود شكري الآلوسي.

٩. "الإمام المجاهد الصومالي" محمد بن عبدالله حسن.

١- رجل الحماسة والهمة
عبدالعزيز الثعالبي
١٢٩٣-١٣٦٣

١٨٧٤-١٩٤٤

عبد العزيز الثعالبي علم من أعلام تونس الخضراء، كم في تونس من أعلام، وكم ظهر فيها من رجال عظام منذ أَنِسَتْ بالفتح الإسلامي إلى يوم الناس هذا، ولئن نكبت في هذا الزمان ببورقيبة وابن علي فإن فجرها قادم بإذن الله تعالى، وضياءها منتشر عما قريب، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

كانت تونس إلى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي ولاية تابعة للخلافة العثمانية، ولما ضعفت الدولة العثمانية في أوائل ذلك القرن بدأت الأخطار تتهدد تونس من جهتي فرنسا وبريطانيا، وابتدأ التدخل الأجنبي يؤثر في تونس منذ الثلث الأول من ذلك القرن، وظهر ذلك فيما يعرف بالامتيازات التي منحت لفرنسا ثم انجلترا، وفي عدد الأجانب الكبير الذي انتشر في البلد، وصبغ الحياة هناك بالصبغة الغربية، وأحاطت الدسائس بتونس التي كانت قد خطت خطوات إلى الحضارة والعمران على يد خير الدين التونسي الوزير، والشيخ محمود قابادو وآخرين.

لكن ذلك لم يدم إذ سرعان ما سقطت البلاد في قبضة الفرنسيين سنة ١٨٨١ إثر مناوشات قبلية حدودية بين تونس والجزائر اتخذتها فرنسا ذريعة لاحتلال تونس ومن ثم إعلان الحماية عليها سنة ١٨٨٢ في الثاني عشر من مايو، وعلى إثر ذلك عينت فرنسا فرنسياً مستعرباً يدعي لويس ماشويل رئيساً لإدارة المعارف وأطلقت يده في البلد فاستولي على كل ما له علاقة بالتعليم والثقافة، واستولي على التعليم في الجامعة الزيتونية، ووضع قوانين تقدم الفرنسية على العربية في مناهج التدريس، وأوقف النهضة العلمية في الزيتونة التي كانت قد جمعت آنذاك بين العلوم الشرعية والعصرية[١].

وقيدت فرنسا حريات التونسيين في التعبير والنشر، وحولت الإدارة إلى النظم الفرنسية، وجعلت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلد، وأهملت المؤسسات التي خطت خطوات في الطريق إلى الحضارة والعمران كالزيتونة ومدرسة باردو الحربية التي جمعت بين العلوم العسكرية والهندسية والرياضية.

---

(١) ما أشبه صنيعه بصنيع اللورد كرومر في مصر، وما أقربهما زماناً وكيداً وتضليلاً.

وكان غياب خير الدين التونسي عن تونس مؤثراً في الروح المعنوية لأهلها، فقد استقال من الوزارة قبل الاحتلال الفرنسي لتونس وصار صدراً أعظم -رئيساً للوزراء- في الدولة العثمانية وبقي فيها إلى وفاته سنة ١٨٩٠.

وظهر على إثر ذلك في تونس رجال يريدون الإصلاح والارتقاء مستمسكين بحبل الإسلام والعربية، ومقابل هؤلاء ظهرت فئة تريد السير في ركاب فرنسا، وهي فئة مستغربة أنشأت جمعية سمتها "قدماء الصادقية".

وظهرت فئة ثالثة هي فئة المشايخ المعتزلين لذينك الفريقين، وهم بين سلفي وصوفي.

أما الفئة الأولى التي بنت دعائم إصلاحها على أسس إسلامية وعربية وعلى إرادة الخلاص من فرنسا واحتلالها البغيض فقد برز فيها الشيخ سالم بو حاجب، والبشير بن مصطفى صفر تلميذ خير الدين التونسي، وقد كان لهم جمعية سموها "الحاضرة" وأصدروا جريدة أسبوعية لها الاسم نفسه، ومن ثم أسسوا المدرسة الخلدونية سنة ١٨٩٦.

وفي تلك المدة برز الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي ولد سنة ١٢٩٣ /١٨٧٤ في تونس، وهو من أصول جزائرية، واهتم به جده المجاهد عبد الرحمن الثعالبي الذي قاوم الفرنسيين في الجزائر، وقام على تعليمه وتحفيظه القرآن ومبادئ النحو والعقيدة.

ومن المواقف التي أثرت فيه في صغره أنه لما كان في السابعة من عمره رأى أمه تبكي، فسألها عن السبب فقالت:

أما رأيت الفرنجة يمرون من هنا؟ إنهم يحتلون تونس ولن يخرجوا منها إلا بالحرب.

ثم التحق بمدرسة باب سويقة الابتدائية بتونس ثم بجامع الزيتونة، واختلف المؤرخون هل أكمل دراسته أوْ لا، وكان كثير الانتقاد لطرائق التدريس ومناهجه وكتبه، وهذا أدى إلى تبرم بعض المشايخ منه.

ولما تألف في تونس الحزب الوطني الذي كان أول حزب يطالب بتحرير تونس سنة ١٨٩٥ انضم إليه، ثم أسس الحزب الوطني الإسلامي، وكتب في الصحف داعياً إلى الاستقلال فعطل الفرنسيون جريدتين: المنتظر والمبشر، فأسس جريدة

سبيل الرشاد التي استمرت عاماً ثم عطلت، ومن بعدها ضيقت الحكومة على الصحافة.

وهنا رأى أن تونس ضاقت عليه فقرر الخروج منها، لكن الفرنسيين منعوه فهرب إلى طرابلس التي كانت لا تزال تحت الحكم العثماني، فعمل السفير الفرنسي في طرابلس على إخراجه منها فخرج إلى استانبول عن طريق اليونان وبلغاريا فوصلها سنة ١٨٩٨ وتحدث مع رجال الدولة وناقشهم في القضية التونسية، ومن ثم غادرها إلى مصر واجتمع بكثير من كبارها، ثم عاد إلى استانبول ومنها عاد إلى تونس فوصلها سنة ١٩٠٢ بعد أن بقي أربع سنوات خارجها، ومنذ ذلك الوقت أحاطت به محن وبلاءات أوجزها في الآتي:

قبض عليه سنة ١٩٠٦ ووضع في السجن بتهمة محاربته للأولياء، وأُخذ سيراً على الأقدام من السجن إلى المحكمة وكان هناك عدد كبير من أهل البلاد قد اجتمعوا حوله رافعين علماً أبيض وكتبوا فيه: اقتلوا الثعالبي الكافر!!

فسجن شهرين ثم خرج لينادي بالإصلاح الذي لم يرض عنه الفرنسيون ولا بعض المشايخ.

ولما احتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ حاول مساعدة المجاهدين وإرسال المساعدات فنقم عليه الفرنسيون صنيعه.

سنة ١٩١٢ قبض عليه الفرنسيون وأخرجوه خارج البلاد فأضربت البلاد ثلاثة أيام وأصر الشعب على رجوعه فأبى أن يرجع حتى يحقق الفرنسيون الإصلاح المنشود فقال له الفرنسيون: إن الحرب العامة على الأبواب فإذا انتهت الحرب قاموا بذلك، فعاد إلى تونس سنة ١٩١٤.

وظل عاملاً في مجالات الإصلاح إلى أن أعتقل سنة ١٩٢٠ وسجن في تونس.

ثم خرج من البلاد سنة ١٩٢٣ وبقي خارج تونس حتى عام ١٩٣٧، وكان سبب إخراجه هو مطالبته المستمرة بالحريات وعداؤه مع الباي -الحاكم- الجديد محمد الحبيب الذي كان من أصفيائه ثم لما تولى الحكم انقلب عليه وعلى مبادئه التي كان ينادي بها من قبل، فغادر تونس إلى إيطاليا ففرنسا، ثم إلى مصر، فالحجاز.

ثم استقر به المقام في العراق حيث درّس في جامعة آل البيت ببغداد منذ سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٠.

وقد نظم الشاعر العراقي المشهور معروف الرصافي قصيدة قوية في استقباله سنة ١٩٢٥:

أتونسُ إن في بغدادَ قوماً ... تَرِفُّ قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب ... إلى مَنْ خُص منطقهم بضاد
ودينٌ أَفْصحَتْ للناس قَبلاً ... نواصعُ آية سبلَ الرشاد
فتحن على الحقيقة أهلُ قُربى ... وإن قضت السياسة بالبعاد
وما ضَرّ البعادَ إذا تدانت ... أواصرُ من لسان واعتقاد
وإن المسلمين على التآخي ... وإن أغرى الأجانب بالتعادي

ثم قال عن الثعالبي:

وكان طوافه شرقاً وغرباً ... لغير تكسُّب وسوى ارتفادِ[1]
ولكن ساح لاستنهاض قوم ... حَكَوْا بجمودهم صفة الجماد
يغار على العروبة أن يراها ... مهددة المصالح بالفساد

---

(١) الارتفاد طلب الرِفْد وهو العطاء.

ولقد استفاد منه العراق فانتدبه للإشراف على البعثة الطلابية العراقية إلى مصر، ومثّل العراق في مؤتمر الخلافة بمصر سنة ١٩٢٥ الذي دعا إليه شيخ الأزهر عقب إسقاط الخلافة في اسطنبول، وقد قيل إن ترشيحه ليشرف على الطلاب في مصر هو لإبعاده عن العراق التي كان له فيها مكانة عالية أخافت ذوي الأمر من الإنجليز وأذنابهم.

ثم ترك العراق إلى مصر، ومنها سافر إلى الصين وسنغافورة وبورما والهند، ثم عاد للقاهرة ومنها إلى تونس حيث استقبل استقبالاً حافلاً من الشعب وكاد الشعب يُتَوِّجه عليه لكن قطعت فرنسا عليه الطريق حيث أعلنت حالة الحصار على البلاد، وأنشأت المحاكم العرفية، وهذا أدى إلى أن ينزوي في بيته ويتفرغ للتأليف والمحاضرات -أحياناً- إلى أن توفي سنة ١٩٤٤ قبل أن يمتع ناظريه برؤية الاستخراب الفرنسي مطروداً من أرضه، لكنه كان بلا منازع من أهم العوامل التي أسست لهذا الاستقلال وعملت له بجد واجتهاد.

أهم أعمال الثعالبي رحمه الله تعالى:

أولاً: فضح مخططات الفرنسيين وادعاءاتهم الباطلة:

فقد وقف عقبة كَأْدَاءَ أمام مؤامرة تجنيس فرنسا للتونسيين بعد الحرب العالمية الأولى، وظل يكتب في الصحف المصرية وغيرها مفنداً هذا الأمر ومبيناً خطورته.

ـ وقد استطاع أن يُظهر بوضوح أن تونس قبل الاحتلال الفرنسي كانت تملك مقومات النهضة وقد قطعت خطوات مهمة في ذلك الطريق فجاء الفرنسيون ليهدموا كل ذلك، وليس الأمر على العكس الذي يريده الفرنسيون ويذيعونه، وقد نشر في ذلك مقالات جيدة.

ـ وفضح المخططات التنصيرية الفرنسية، وكشف زيف ادعاءاتهم بأن مسلمي شمال إفريقيا كانوا نصارى ثم دخلوا في الإسلام، وبين أن هذا غير صحيح تاريخياً، وبين أيضاً أن ادعاء الفرنسيين أن أهل شمال إفريقيا من أصل غربي ادعاء عار عن الصحة.

ـ وبين كيف استولى الفرنسيون على خيرات تونس فذكر أن مساحة تونس تبلغ ٩ ملايين هكتار ـ والهكتار ألف

متر مربع– منها مليون هكتار أراض جبلية، ومليون ونصف المليون غابات وأحراش، ومليون غير صالح للزراعة، وهناك خمسة ملايين ونصف المليون أراض صالحة للزراعة استولى الفرنسيون على أكثرها، واستولوا كذلك على مناجم الفوسفات والرصاص و الحديد والفحم الحجري وغير ذلك.

ـ وأراد الفرنسيون كتابة تاريخ تونس باللهجة العامية، واعتمادها لغة رسمية للتعليم والخطابات الرسمية، وكان الثعالبي وراء إفشال هذا المشروع ومشروع آخر له صلة به وهو إصدار معجم اللغة العامية، وكانت جهوده تلك من خلال كتابته المقالات الكثيرة ضد هذه المشاريع في صحيفة "التونسي".

ـ وكشف عوار سياسة التعليم الفرنسية، وبين أنها ترمي إلى إيجاد أيد عاملة وليس عقولاً مدبرة، وأوضح أيضاً كيف عملت فرنسا على محاربة اللغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخية، وهذا الذي أزعج فرنسا فأخرجته من تونس وضيقت عليه خارجها، وقد أوضح كل هذا وغيره في كتابه "تونس الشهيدة" الذي نشره بالفرنسية ثم عُرّب بعد

ذلك، وعَدّت فرنسا كل من يقرأ الكتاب عدواً لها، وجعلت من قراءته جُنحة يعاقب عليها القانون الجائر.

ثانياً: الدراسات التي قام بها عن المسلمين في أقطار كثيرة:

كان الثعالبي قد ارتحل طويلاً، وجال في بلاد كثيرة، وهذا ساعده على أن يقف على أحوال المسلمين في بلاد عديدة، وكتب كل ذلك بالتفصيل، وإني لأعجب من مثقفينا وذوي الرأي منا كيف لم يستفيدوا من تلك الكتابات ومن ثَمّ يبنون عليها ويطورونها، فمن جهوده في بيان أحوال المسلمين وأوضاعهم:

ـ التقى عشرات من زعماء المسلمين وكبارهم ومثقفيهم وأعلامهم، واقترح عليهم أموراً من شأنها أن ترتقي بالمسلمين، وقد قابل زعماء منهم الملك عبد العزيز والإمام يحيى، والنحاس باشا في مصر.

ـ وصف أحوال الخليج العربي العلمية والثقافية في مسقط ودبي والبحرين والكويت، وبين أن تجارة اللؤلؤ تجلب الرزق الوفير لأهل الخليج لكنهم لا يستفيدون من ذلك المال

حق الاستفادة في عمل مشاريع في البلاد إنما يودعونه في المصارف الهندية، وقد ذكر الأستاذ عبد العزيز الرشيد في كتابه "تاريخ الكويت" أنباء الاحتفالات به وما أُنشد من القصائد ابتهاجاً بقدومه إلى الكويت.

ـ وتحدث عن اليمن وأحوالها الاقتصادية، وبين أنها بلاد ذات حضارة ومدنية ووصف ما رآه فيها وصفاً جيداً.

ـ وبين أحوال المسلمين في الهند، وكيف انتشر الإسلام هناك بدون دعوة مخطط لها أو حركة قوية من المسلمين، وقد قدم تقريراً عن مسألة المنبوذين في الهند إلى رئيس المؤتمر الإسلامي محمد أمين الحسيني، وكان تقريراً جليلاً مفصلاً غاية التفصيل وبين فيه رغبة المنبوذين في اعتناق الإسلام، وقد بين في تقريره حقيقة تخفى على أكثر المسلمين إلى يومنا هذا ألا وهي أن حركة الاستقلال في الهند كانت بيد زعماء المسلمين وهم الذين ابتدأوها إلى أن خطفها غاندي منهم ثم نسبت إليه !!

وذكر أحوال المسلمين -على هذا المنوال- في مناطق كثيرة، واقترح اقتراحات عديدة اقتصادية وسياسية وثقافية

لكن أين من يأخذ بكلامه واقتراحاته ؟! إن إهدار أعمال الدعاة المثقفين، وأولي العلم العاملين لهو تضييع لجهود كثيرة وأعمال عظيمة، وإضاعة لتجارب كان يمكن الاستفادة منها ، لكن بمن نستعين وبمن نستغيث؟! الله المستعان.

ثالثاً: جهوده السياسية في العالم الإسلامي:

لم يكتف الثعالبي بجهوده السياسية في تونس، إنما امتد عطاؤه إلى البلاد العربية والإسلامية، فقد شارك في مؤتمر الخلافة الإسلامي في القاهرة استجابة لدعوة شيخ الأزهر المسلمين للنظر في قضية الخلافة، وقد كان الثعالبي في العراق آنذاك مدرساً فاختاره العراق ممثلاً له، وكان ذلك سنة ١٩٢٥.

وكان عضواً مؤسساً في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس سنة ١٩٣١ في المسجد الأقصى، وقد اختير مفتى فلسطين محمد أمين الحسيني رئيساً لهذا المؤتمر، واختير الثعالبي رئيساً للجنة الدعاية والنشر وعضواً في المكتب الدائم للمؤتمر.

رابعاً: جهوده السياسية في تونس:

كان الثعالبي قد جمع بين الوعي الديني والوعي السياسي، مازجاً ذلك بثقافة إسلامية جيدة، فكان لذلك شوكة في حلق الفرنسيين وأتباعهم من التونسيين، وتجلت جهوده السياسية في مظاهر عديدة منها:

– شارك الثعالبي في حزب "تونس الفتاة" الذي كان ينادي بالارتباط بالخلافة الإسلامية والسلطان عبد الحميد، وانتقاد نظام الحماية الفرنسي، والدفاع عن الحضارة الإسلامية.

– سافر بعد الحرب العالمية الأولى إلى باريس ليكون فيها أثناء انعقاد مؤتمر الصلح –مؤتمر فرساي– وقد سمع أن الرئيس الأمريكي ويلسون سيحضره، وهذا الرئيس كان قد أعلن مبادئه الأربعة عشر لعقد الصلح ومنها حق الشعوب في تقرير مصيرها، فسافر ليعرض القضية التونسية، وحاول في باريس أن يجمع بين قلوب المسلمين هناك على تعدد أجناسهم، واتصل بزعماء الحركات التحررية في العالم الذين كانوا في باريس أثناء مؤتمر الصلح.

وأصدر هناك كتاب "تونس الشهيدة" الذي أشرت إليه آنفاً.

وقدّم إلى المقيم العام الفرنسي في تونس الذي كان في باريس آنذاك مذكرة طالب فيها بإلحاح برفع إجراءات الحظر على الصحافة التونسية فألغت فرنسا على أثرها قرار تعطيل الصحف.

واتصل بالرئيس الأمريكي ويلسون وبالحزب الاشتراكي الفرنسي.

وعارض في باريس حصول تونس على قرض مالي.

وكل ذلك أدى بالفرنسيين إلى سجنه في باريس ومرسيليا، وأعيد إلى تونس ليسجن هناك أيضاً.

ـ إنشاء الحزب الدستوري وتولي رئاسته وذلك سنة ١٩٢٠، ولما ضُيق عليه في تونس خرج منها سنة ١٩٢٣، ثم جرت أحداث عديدة انشق الحزب الدستوري على إثرها شقين، وأسس حسن قلاتي الحزب الإصلاحي الذي تقرب إلى فرنسا، وكان المتنازعون قد أرسلوا إليه قرابة ١٥٠ رسالة فكان على ذكر تام بما جرى هناك.

ولما عاد الثعالبي إلى تونس حاول استرداد الزعامة في الحزب الدستوري وفي الحياة السياسية التونسية لكنه أخفق، ولعل السبب في ذلك طول غيابه عن بلده، على أن الناس قد استقبلوه في بلده إثر عودته استقبالاً جليلاً وكان هناك ثلاثون ألفاً ينتظرونه في ميناء العاصمة لكن ذلك لم يكن كافياً لاستعادة زعامة الحياة السياسية في ظل مؤامرات فرنسية وارتباطات مشبوهة لأذيال تونسية، وقد تعرض لمحاولتي اغتيال في تونس بعد عودته أثناء طوافه بالبلاد التونسية لجمع الشمل واجتماع الكلمة.

مؤلفاته:

للثعالبي كتب قليلة ومقالات كثيرة، وكتابته بليغة مؤثرة كخطابته، وقد ألف بالفرنسية كتاب "روح القرآن الحرة" وألّف "تونس الشهيدة".

وألف بالعربية "معجز محمد رسول اللّه" e .

وله مئات المقالات بالعربية والفرنسية لا أدري ما حالها اليوم وهل جمعت أو لا؟

وله محاضرات مطبوعة في مجلة جامعة آل البيت في بغداد من سنة ١٩٢٦–١٩٢٨.

أقوال تمدح الثعالبي:

محمود زكي باشا:

"كنت من أشد الناس إعجاباً بذكائه الباهر وفصاحة لسانه، وسعة اطلاعه، وغزارة علمه، وفرط حميته الإسلامية ... وكان لا ينفك عن التكلم باللغة العربية الفصحى".

محمد لطفي جمعة:

"هو من أشرف البيوت وأعظمها، وله الكلمة العليا والصوت المسموع والأثر المحمود من أقصى تونس إلى أقصاها، بل شمال أفريقيا كله".

حامد المليجي محرر جريدة البلاغ:

"وفي مؤتمر القدس كان الثعالبي خطيباً متحمساً فاستعرض التاريخ منذ ظهور الإسلام وتلألؤ قوته إلى الحالة التي وصل إليها أهله اليوم، ثم ناشد المجتمعين أن يعملوا لاسترجاع المكانة التي كانت لأمتهم فقال : انسوا الماضي ولا تبكوا واعملوا وأصلحوا".

الشاعر العراقي معروف الرصافي:

"أعظم خطيب عربي عرفه هذا القرن" وحسبك بهذا شاهداً على بلاغته وعظم تأثيره.

محمود أبو الفتح في جريدة السياسة المصرية ١٩٢٦/٥/١٦:

"إن مكانته في تونس هي مكانة سعد زغلول في مصر[١]، وإنني لا أنسى الثعالبي في باريس عام ١٩١٩ في عاصمة فرنسا يثير الأرض والسماء على فرنسا في تحرير تونس، يثير أحرار الفرنسيين على سياسة الاستعباد".

وقال الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور وهو أحد من يُعْتّد برأيه وتزكيته:

"عبد العزيز الثعالبي واحد من ذلك الرعيل من المجاهدين المسلمين في الوطن العربي إبان الحملة الاستعمارية التي اجتاحت المشرق الإسلامي، وقد تميز هذا الرعيل بطابع خاص فهم لم يكونوا زعماء سياسيين أو مجاهدين وطنيين أو صحافيين أو كتّاباً أو مصلحين اجتماعيين، وكلهم كانوا

---

(١) وعلى سعد زغلول مؤاخذات عديدة لعلي أن أبينها في مكان آخر.

كل ذلك مجتمعاً في شخصياتهم القوية الصلبة التي واجهت الاحتلال الأجنبي مضحية بكل ما تملك".

وقال الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو:

"إني لأزعم بأن أحداً من التونسيين المناضلين حديثاً والجوابين بعلمهم قديماً لا يضاهيه فيما حققه من إشعاع وتركه من صدى في معظم أنحاء آسيا والعالم الإسلامي".

والعجيب أن هذه الشخصية العظيمة، -فيما علمنا وفيما جاء مِن تزكيات الذين عاصروها- تُنسى على هذا الوجه المفجع اليوم، فلا تتداول آراءها، ويُهمل كلامها في المجالات المتعددة التي خاضتها، وصارت كأمس الذاهب، وذهبت أدراج الرياح، وهذا يدل على تقصير مثقفي المسلمين وعلمائهم ودعاتهم في العناية بأعلامهم المعاصرين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ـــ والعجيب -أيضاً- أن تونس كرمته سنة ١٩٨٩ أي بعد وفاته بخمس وأربعين سنة بدعوى أنه جاهد لاستقلال تونس، وحكام تونس اليوم يئدون جهود الثعالبي ويذهبون بها أدراج الرياح.

خامساً: نظريات ومطالب مهمة دعا إليها:

قد كان للثعالبي جملة من النظريات والمطالب دعا إلى تحقيقها، فمن ذلك:

ـ الإيمان العميق بالحرية، والدعوة إليها بقوة.

ـ المناداة بالوحدة العربية حتى أنه اتهم من قبل بعض الباحثين بالقومية المحضة، وهذا بعيد عن قامة مثل الثعالبي لكن الحق أنه كان ينادي بها لتكون مِن ثَمّ نواة للاجتماع الإسلامي، وما جهوده ورحلاته في العالم الإسلامي إلا برهان لما ذكرته، والله أعلم.

ـ عدم الاعتراف بالحدود المصطنعة التي جعلها الاستخراب العالمي خنجراً في خصر الأمة حتى لا تتعاون التعاون الحقيقي المفضي إلى استعادة عزتها وسيادتها.

ـ الدعوة إلى العمل المؤسسي والجماعي، وهذا في زمانه رأي تقدم به على كثير من غيره من المصلحين.

ـ الدعوة إلى العلم التخصصي المثمر فالاقتصادي يتعمق في علمه، والعالم الطبيعي يضبط علمه ويستنفد جهده في هذا العلم حتى لا تتشتت الطاقات والجهود.

ـ تربية الأجيال على الإسلام والثقافة العربية والإسلامية، وكان يرى أن هذا هو السبيل لطرد الغزاة واستعادة السيادة.

ـ الدعوة إلى التجديد ومقاومة الجمود والتخلف في الجامعات والمؤسسات العلمية الأخرى ، وبناء العقل بناء حراً من التقاليد والعادات الجامدة.

وبعد:

فهذا هو الثعالبي وتلك حياته موجزة لكنها معبرة عن تصميم وحماسة وجهد وبذل وتضحية، فما أحرى الشباب أن يقفوا عليها ويقتدوا بها ويستفيدوا منها، فرحمه الله رحمة واسعة ونفعنا بصنيعه وجهاده.

٢- العالم المجاهد

محمد أمين الشنقيطي

١٢٩٣-١٣٥١

١٨٧٦-١٩٣٢

لقد كان لعلماء شنقيط صولات وجولات في العلم لكن ربما لأن قطرهم بعيد جداً فقد سقطوا من ذاكرة الأمة، هذا وفيهم جهابذة كبار، وحالهم هذا يشبه حال أهل اليمن، وقد ذكر الشوكاني أن علماء اليمن -على عظمتهم- قَلّ من يعرفهم في مصر والشام والعراق، وهذا لبعد بلادهم وعزلتهم فيها، فإن كان هذا حال اليمن فكيف يكون حال شنقيط إذن؟

ولد الشيخ محمد في موريتانيا، ونشأ في طلب العلم وحفظ القرآن العظيم والمنظومات العلمية كما ينشأ طلاب العلم في بلده لكنه توسع في دراسة الأدب والشعر الذي كان سائداً في المنطقة آنذاك، ولما بلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً أي في سنة ١٣١٨ ذهب إلى المغرب لطلب العلم ودار في مدنها: الصويرة ومراكش والدار البيضاء والرباط، ومنها كان ينوي الذهاب إلى فاس حاضرة العلم والعلماء في المغرب الأقصى لكنه أصيب بالجدري ثم شفاه الله منه في العام نفسه فتوجه إلى القاهرة، ووفد على بلديّه الشيخ المشهور العلامة محمد محمود التركزي الشنقيطي المعروف بابن التلاميد،

فعني به وأخذه إلى مفتي الديار المصرية آنذاك الشيخ محمد عبده فعُني به أيضاً وكتب له كتاباً إلى محافظ السويس ليركبه إلى جدة، فأدى العمرة في أواخر المحرم سنة ١٣١٩، ثم توجه إلى المدينة ليصاب بحمى ثقيلة لمدة سنتين لكنها لم تمنعه من التردد على العلماء ودروسهم، وبقي في الحجاز بين مكة والمدينة إلى سنة ١٩٠٨/١٣٢٦، وذلك لأنه قد بلغه استيلاء الفرنسيين على بلاده فلم يشأ أن يبقى تحت العبودية، ثم سافر إلى الهند، ثم إلى عُمان فالبحرين، ثم الإحساء وقرأ هناك على شيخها عيسى بن عكاس، وفي صفر سنة ١٩٠٩/١٣٢٧ جاءته رسالة من أحد مشايخه يطلب منه أن يتوجه إلى الزبير في العراق ليدرس في مدرسة بناها مزعل باشا السعدون فلم يجد بداً من الذهاب فلما وصل الزبير وجد أن مزعل باشا قد مات، وقد عين أوصياؤه رجلاً مغربياً مدرساً في المدرسة فهم بالرجوع فطلب إليه بعض الطلبة أن يعقد لهم دروساً ففعل فأعجب به كل من سمعه حتى أنهم رجوه أن يبقى بينهم فاستجاب لهم وبقي بينهم ورأوا أن يقيدوه فزوجوه فتاة يتيمة فكانت أمَّ أولاده السبعة، وقام في البصرة يعظ بأسلوب

قوي وجريء يحارب فيه الأوهام والبدع والخرافات، وينعى على العلماء جمودهم وتقصيرهم، وعلى الدولة العثمانية تعطيلها للحدود الروادع وإقرارها للفواحش -وهذا والله أعلم لأنه كان يدير الدولة العثمانية آنذاك جمعية الاتحاد والترقي الماسونية- وكل هذا أثار عليه بعض المشايخ الذين حسدوه ورفعوا إلى مدير الناحية أمره وأنه يجب إبعاده لأنه يحرض العوام على الدولة العثمانية ويقلل من شأنها وهيبتها في النفوس لكن كان المدير عاقلاً عالماً بسبب الحملة هذه على الشيخ فذهب إلى الشيخ محمد بن عوجان إمام مسجد الباطن وكان تقياً ورعاً فسأله عن الشيخ الشنقيطي فأثنى عليه وبين أنه لا يقصد في وعظه إلا الخير، وأنه قد حصل به خير كثير لأهالي الزبير فاقتنع مدير الناحية وكف عنه.

وبقي الشنقيطي يدعو إلى الله تعالى ويجتهد في نشر الخير إلى سنة ١٩١٣/١٣٣١ حيث دُعي إلى الكويت ليشارك في الجمعية الخيرية التي أنشأها مجموعة من أهل الكويت وكان الغرض منها إعداد طلاب العلم في البلاد العربية المتفوقة علمياً آنذاك مثل القاهرة ودمشق وبيروت، والإنفاق عليهم حتى

يعودوا، ولها أغراض خيرية متنوعة، وقد أسهمت هذه الجمعية في تحريك المجتمع الكويتي آنذاك ودفعه إلى نهضة فكرية وعلمية وأدبية فقد دعت إلى الكويت مشايخ كثيرين كرشيد رضا وحافظ وهبة ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبدالعزيز الثعالبي التونسي وغيرهم، وظل الشيخ الشنقيطي في الكويت يعظ ويدرس إلى أن أصبحت الحرب العالمية الأولى على الأبواب، وكان الحاكم في الكويت آنذاك الشيخ مبارك الذي كان قد عقد اتفاقية مع الإنكليز سنة ١٨٩٩ فخشي من الجمعية فأغلقها، وكاد الشيخ الشنقيطي أن يعتقل إثر أحداث جرت هناك حيث تخوف مبارك منه ومن مناصرته الدولة العثمانية فهرب إلى الزبير تاركاً زوجه وأولاده ست سنوات!! ولما وصل البصرة راح يدعو للجهاد في سبيل الله ضد الإنجليز الكفرة، ولم يكتف بهذا بل شارك في القتال بنفسه في معركة الشعيبة، وهي قرية تبعد عن البصرة عشرة أميال وعن الزبير ميلين، وقصة هذه المعركة كالتالي:

وردت برقية من البصرة لمختلف المدن العراقية جاء فيها: ثغر البصرة الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى

على باقي بلاد الإسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع" وتليت البرقية على الناس، وصار الوعاظ والخطباء يلهبون الحماس ويثيرون المشاعر الدينية وأن الإنكليز إذا احتلوا العراق فإنهم سيهدمون المساجد، ويحرقون القرآن، وينتهكون حرمات النساء، وساد العراق كله حركة جهادية جليلة خاصة عندما أفتى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية آنذاك خيري أفندي أن الجهاد قد أصبح فرض عين على جميع المسلمين، والتحم المسلمون بالإنجليز في الشعيبة ثلاثة أيام أظهر فيها المسلمون شجاعة هائلة وحماساً عظيماً، وكان الهنود المسلمون جنوداً في الجيش البريطاني!! فأثرت فيهم دعوات الجهاد فكان الإنجليز ينخزونهم بالسيوف والحراب ليخرجوهم لقتال المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار الإنجليز المتفوقين عسكرياً، ومن ثم انتقل الشنقيطي إلى بغداد لمدة أربعة أشهر ومنها إلى حائل التي مكث فيها قليلاً يدرس ثم توجه إلى عنيزة واجتمع بالملك عبدالعزيز هناك، واستضافه آل البسام مدة كتب فيها مذكراته.

ثم إن الشيخ أحمد الجابر الكويتي أراد الحج فعرّج على عنيزة واقترح على الشيخ الشنقيطي أن يرافقه إلى الحج، فوافق الشيخ وأكرم الشريف حسين مثواهما في مكة، ثم عاد إلى عنيزة وبقي فيها سنتين يدرس ويعظ، ثم لما مات مبارك الكبير عاد إلى الكويت ليرى أسرته التي تركها ست سنوات!! والتقى بأمير الكويت الشيخ سالم الذي أساء استقبالهم إلى حد غريب فطرده من البلد وأمهله ثلاثة أيام للخروج منها، وربما كان ذلك بسبب ما جرى بين مبارك الكبير والشنقيطي، والله أعلم.

وتوجه الشيخ إلى الزبير ثم لحقت به أسرته بعد ذلك، وأخذ في وعظ الناس وإرشادهم، ودعاهم إلى إنشاء المدارس فاستجاب له نفر من الزبيريين وأنشأوا جمعية النجاة سنة ١٣٣٩/١٩٢٠، ومدرسة النجاة سنة ١٣٤٢/١٩٢٣، وقد تفوقت هذه المدرسة على مثيلاتها، وصار لها أثر جليل، وبلغ عدد طلابها سنة ١٣٦٦/١٩٤٧ أربعة آلاف طالب منذ تأسيسها.

ولما تأسست المدرسة سأله أحد وجهاء العراق عن رأيه في افتتاح مدرسة للبنات فبين الشيخ أهمية هذا الأمر، لكن

الحسدة لم يرضوا إلا أن يؤذوه بهذه الفتوى فهيجوا عليه العامة بدعوى أنه يريد شيوع الاختلاط بين الرجال والنساء، وفاجأه أحد العوام بعد العشاء فضربه بعصا ضرباً مبرحاً، لكن أنقذه بعض الحاضرين، وأخذ الرجل للسجن، وانتشر الخبر في العراق والكويت والخليج، ووردت البرقيات المنددة بهذا الصنيع الآثم، ولما خرج الرجل المعتدي من السجن جفاه الناس وعضه الجوع بنابه حتى جاء باكياً إلى الشيخ تائباً معتذراً فواساه الشيخ بطعام من حانوت يتعامل معه، وكان الشيخ بهذا مطبقاً لقوله تعالى "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس".

ولما صار الشيخ أحمد الجابر أميراً للكويت -وكان صديقاً للشنقيطي- جاءته دعوة من النادي الأدبي في الكويت سنة ١٩٢٤/١٣٤٣ فلباها مسروراً واستقبل استقبالاً حافلاً وأقيمت له حفلة تكريمية رائعة، أنسته ما لاقاه زمان مبارك وسالم من قبل، وعاش أياماً سعيدة في الكويت.

ثم إنه عاد إلى الزبير ليشرف على المدرسة التي أسسها هو وثلة من وجهاء الزبير، وكان يعمل كل ما في وسعه من أجل إنجاح مقاصد المدرسة ورعاية طلابها وجلب التبرعات لها

من المحسنين في العراق والكويت، وسار على هذه السيرة حتى صار خريجو المدرسة منتشرين في الزبير والبصرة والكويت وبغداد وغيرها وصار منهم الأطباء والمحامون والعسكريون والمربون، والشعراء، والوعاظ، والمعلمون، وثبت الشيخ الشنقيطي رحمه اللّٰه تعالى على عطائه وبذله حتى لقي اللّٰه تعالى سنة ١٣٥١/١٩٣٢ ودفن في مقبرة الحسن البصري رحمه اللّٰه تعالى.

تلك كانت حياة هذا الشيخ الذي جمع بين أعمال كثيرة جليلة: تعليم العلم الشرعي، الدعوة إلى اللّٰه تعالى، الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى، التوعية في زمن الجهل، الوقوف في وجه الظلمة، مقارعة الاستخراب البريطاني، وغير ذلك من أعمال جليلة تحمل في سبيلها الغربة عن وطنه، والبعد عن أهله، وشظف العيش وشدته، وتجهم الأقارب والأباعد، والازدراء والاستخفاف، وكل ذلك في زمن الخوف والاضطراب أيام الحرب العالمية الأولى وانتشار الفوضى في كل مكان، فرضي بما هنالك، وثبت ثباتاً عجيباً حتى أتاه اليقين، وهذا هو المرجو من ورثة سيد المرسلين وإمام المتقين، وذلك هو الطريق الذي لا

مناص منه ولا محيد عنه، فرحمه الله رحمة واسعة، ورفع درجته في عليين.

٣- القائد البطل

ساموري توري

١٢٤٦ - ١٣١٩

١٨٣٠ - ١٩٠٠

طمع الغربيون بإفريقيا، وأقبلوا عليها من كل حدب وصوب لاقتسامها في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، فاحتلت فرنسا الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا، واحتلت انجلترا مصر، ولم يكتفوا بهذا بل زحفوا على قلب القارة السوداء فاقتسموها بينهم، فكانت منطقة نهر النيجر الكبرى من نصيب الفرنسيين لكنهم لم يستولوا عليها إلا بعد مقاومة عنيفة شديدة من هذا الإمام الكبير والمجاهد العظيم ساموري توري.

وتوري هي عشيرة تسكن مدينة جنى في قلب امبراطورية مالي الإسلامية، فلما قامت مملكة صنغي مكان امبراطورية مالي ترك التوري جنى إلى أعالي النيجر.

ولد في بلدة سانكورو sanankoro بالقرب من بيساندوجو بغينيا الفرنسية وتقع في أعالي حوض نهر ميلو أحد روافد نهر النيجر، ولا يعرف بالضبط تاريخ ولادته إلا أنه بين عامي ١٢٤٦-١٢٥١، ١٨٣٠-١٨٣٥م، وتلقى تعليمه الأولي على يد والده، ثم تعهده أحد المشايخ بالرعاية والتعليم،

وقيل: بل ولد من أبوين كافرين ثم اعتنق هو الإسلام بعد ذلك، والله أعلم، وهناك حادثة طريفة في تعلمه القتال وهي أن أمه وقعت في أسر أحد الزعماء الأفارقة وهو الملك سوري بيراما ملك بيساندوجو فكان عليه -إذا أراد أن يفتديها- أن يخدم في جيش هذا الزعيم مدة من الزمن، وهذا الذي صنعه، وبعد انقضاء خدمته لمدة سبع سنوات اكتسب خبرة في فنون الحرب والقتال والتفاوض مع الأعداء.

وابتداء من سنة ١٨٦٢ استطاع أن يجمع الشباب حوله ليكون قائدهم، وكون نواة دولة وسعها من بلاد الوثنيين حتى وصل إلى حافة فوتاجولون غرباً، وبوري شمالاً، وتعاطف التجار معه فساعدوه في إنشاء دولته الناشئة، وتنازل له أعمامه فرضوا أن يكون تحت إمرته، ونجح في ضم مدينة كان كان وطوّع جماعات اليسيسي تحت سيطرته، وحطم الوثنيين في الشمال في كونيا العليا، وفي سنة ١٨٤٤ في ٢٥ يوليو/ رمضان جمع أهله في احتفال وأعلن لهم أنه سيلقب نفسه بلقب الإمام، وطلب من أهله ورعاياه أن يعتنقوا الإسلام، وفي نوفمبر من العام نفسه

منع الخمر شرباً وبيعاً في مملكته، ومنع العادات الوثنية، وبدأ في تطبيق الشريعة.

كان عامة جيشه من المشاة وقليل منهم من الفرسان، وسلحهم بأسلحة أوروبية حديثة كان يشتريها من البريطانيين في فريتون مقابل بيع الذهب والعاج وأسرى الحروب، وكان حرسه الشخصي مكوناً من ٥٠٠ رجل، وكان لأخيه مالنكي توري قوة خاصة تقدر بمائتي فارس وألف راجل.

كان الفرنسيون قد عزموا على الاستيلاء على كل المنطقة التي يجري فيها نهر النيجر، فأتاهم الله بهذا البطل الذي كبدهم من الخسائر في الأموال والرجال ما لم يتوقعوه، حتى أن بيروز peroz وهو من كبار عساكر الفرنسيين لقبه بنابليون السودان، وهذا البطل العظيم هو في الحقيقة فوق هذا اللقب بكثير، فقد دوخ الفرنسيين بجهاد جليل دام ثلاثة عشر عاماً!! هذا وأسلحته تعد بدائية أمام آلة الحرب الفرنسية الجبارة لكنه الإيمان إذا وقر في القلوب فلا يقوم أمامه شيء، لكن ابتلي بعدو مسلم كدر عليه جهاده، واتفق مع عدوه ضده، وهذه بلية تكررت في بلاد المسلمين كثيراً، خاصة في

الأندلس وفي بعض بلاد المغرب العربي الكبير، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعدوه هذا اسمه تيبا Tieba حاكم كندوجو kenedougou وكان هذا عدوه الأول لكنه ليس الوحيد فقد ابتلي بغيره لكن كان ذلك هو العدو اللدود الذي ساعد الفرنسين كثيراً في ضرب ساموري بحيث كان الفرنسيون يهجمون عليه من جهة فيهجم عليه تيبا من جهة أخرى ليصير ساموري بين المطرقة والسندان، وما درى هؤلاء الحكام المساكين أن استعانتهم بالكفار على هذا الوجه والتنسيق معهم لضرب المسلمين هو تمزيق لعقيدة الولاء والبراء، وإذهاب لقوة المسلمين أدراج الرياح، وسرور الأعداء وشماتتهم لكن قاتل الله الحرص على الكراسي فكم جلب من المآسي، واستعصى انتزاعه على الآسي.

وتفصيل إنشائه الدولة ومقاومته الجليلة -رحمه الله تعالى- للفرنسيين أنه اتخذ من بلدة بيساندوجو Bissandougou عاصمة لملكه، وأقامها على الجهاد في سبيل الله تعالى وأحكام الشريعة الإسلامية، وهذا ما أكسبه حيوية وطاقة متجددة لا تنضب، واضطر أن يهادن جيرانه من الإنجليز حتى

لا يفتح عليه باباً ثالثاً هو في غنى عنه فيكفيه عدوه الفرنسي وعدوه تيبا، وأنشأ جيشاً قوياً نسبياً قسمه ثلاثة أقسام: أفضها وأعظمها قوة جعلها قائمة في وجه الفرنسيين ليمنعهم من التدخل في البلاد، والقسم الثاني جعله لحفظ الأمن في بلادهن والقسم الثالث جعله للتوسعات والفتوحات الجدية للقضاء على الوثنية ونشر الإسلام، وبلغ من حرصه على جيشه أنه استطاع أن يصنع بعض الأسلحة وقطع الغيار محلياً، وتلك مرحلة متقدمة في زمنه رحمه الله تعالى، وباقي الأسلحة يشتريها من مدينة فريتون بسيراليون.

وقد فرض على زعيم كل قرية أن يأتيه بشبان صالحين للجندية، وفي أوقات السلم كانت القوات الاحتياطية تسرح ستة أشهر لتعمل في فلاحة الأرض وإجراء المنافع، لتعود بعد ذلك فإن كان في حاجة لها أبقاها وإلا سرّحها مدة أخرى وهكذا، وهذا ضبط جيد فيه صيانة للدين والدنيا معاً، وكان سكان مملكته مليوناً وربع المليون.

وقسم بلاده تقسيماً إدارياً منضبطاً إلى اثنين وستين ومائة إقليم، في كل إقليم عشرون قرية على كل منها زعيم، وفوق

الزعيم حاكم الإقليم، وفوق حاكم الأقاليم الإمام الذي من مهامه نشر الإسلام والقضاء على الوثنية، وتقوية الدولة والمحافظة عليها.

وقد أكثر رحمه الله من بناء المدارس والمساجد، ونشر الوعاظ، واهتم بتحفيظ القرآن الكريم.

حروبه مع فرنسا:

توسعت فرنسا في غرب إفريقيا لتسترد هيبتها التي فقدت عقب هزيمتها في ١٨٧٠ أمام روسيا، وأيضاً استفادت من مقررات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢/١٨٨٤ الذي سمح بتنظيم الاحتلال الأوروبي للقارة السوداء، فوضعت فرنسا نصب عينها مملكة الإمام ساموري توري، ووجدت الفرصة سانحة عندما ارتمى في أحضانها عدوه تيبا المسلم حاكم كندوجو!! فكانت فرنسا تنسق مع تيبا ليحرك قواته إذا حركت هي قواتها حتى تضعف من مقاومة ساموري، وما زالت فرنسا تحاربه حتى اضطر لهدنة تنجلي بموجبها قواته من الضفة اليسرى لنهر النيجر تماماً ويعترف باستيلاء فرنسا عليها وعلى مناجم الذهب في بوريه وإرغامه على التعامل مع المراكز

التجارية الفرنسية، ومقابلها تعترف له فرنسا بملكيته للضفة اليمنى من النهر.

بعد المعاهدة توجه الإمام إلى عدوه تيبا ليقضي عليه وحاصره ستة أشهر في عاصمته سيكاسو لكنه أخفق في فتحها، ولجأ الفرنسيون إلى الحيلة ليخففوا عن حليفهم تيبا الحصار ففك الإمام حصاره عن العاصمة وعاد إلى بلاده لكن بعد أن تحمل خسائر كبيرة فقد قتل سبعة آلاف من جنده واثنين من أشهر قواده، وثار بعض شعبه عليه في أعقاب هذه الحملة، وعارضوا مطالبه بزيادة الجند.

تولى قيادة الجيش الفرنسي في المنطقة قائد شديد العداوة للإسلام والمسلمين اسمه أرشينار، وفرض على ساموري معاهدة أخرى سنة ١٣٠٧/١٨٨٩ تنازل فيها الإمام عن بعض الأراضي وتعهد بعدم الإغارة على البلاد التي احتلتها فرنسا، وقبلها الإمام لأنه كان في حالة ضعف ولم يشأ أن يصطدم مع الفرنسيين آنذاك.

وأراد القائد الفرنسي أن يستغل تيبا في صراعه مع الإمام مرة أخرى، خاصة أن تيبا أرسل له رسالة يقول له فيها: "إني

على ثقة من حسن استقبال أهل البلاد لكم فهم لن يخافوكم، ولن يخشوا إغاراتكم، وسوف يتغير رأيهم فيكم، وتتلاشى كراهيتهم عندما يتفهمونكم ويدركون أغراضكم"!! وهذه خيانة من تيبا لشعبه المسلم وخيانة لحاكم مسلم آخر ولشعب مسلم عريض لكن حب الرئاسة يعمي ويصم.

وحاول القائد أرشينار أن يستميل الإمام وأن يغريه بمعسول القول في رسائل عديدة أرسلها له واقتراحات اقترحها عليه لكن كان الإمام يقظاً فواجهها بالاحتقار الذي تستحقه.

وقد استطاع القائد أرشينار أن يحتل مدينتين من مدن الإمام: كانكان، وبيساندوجو، لكن عندما دخلها وجدهما أكواماً من الرماد فقد أحرقهما الإمام حتى لا يستفيد منهما بشيء.

وكانت مملكة ساموري تدعوها فرنسا بالامبراطورية المتنقلة لأن ساموري كان كلما فقد جزءاً من مملكته عوضه بأجزاء أخرى من الممالك الوثنية المجاورة فكأنه لم يفقد شيئاً وإنما غير حدود مملكته بهذا.

غيرت الحكومة الفرنسية القائد أرشينار وأتت بقائد آخر اسمه بونييه Bonnerr بغية تحقيق نصر سريع بعد أن طالت مدة مقاومة ساموري، وجرد القائد الجديد حملة بقيادة مونتي Monteil لكنها منيت بهزيمة ساحقة من قوات الإمام ساموري وأسر من الجند الفرنسيين عدد كبير، ثم أرسلت فرنسا حملة أخرى فهزمت ولله الحمد كما هزمت سابقتها، فجنحت فرنسا للسلم، وأرسلت حاكم السنغال الفرنسي ليعقد معاهدة مع الإمام الذي قبلها لحاجته إلى الراحة والإعداد وللتفرغ لنشر الإسلام بين الوثنيين، لكن الفرنسيين لجأوا إلى الحيلة والخداع في هذه المعاهدة وتمكنوا على إثرها من تعقب الإمام في معركة كبيرة في يوليو سنة ١٨٩٨ كسبها ساموري ضد القائد الفرنسي لارتيج Lartigue لكنه أخطأ فتحرك غرباً فدخل الغابات الاستوائية وجبال الدان في فصل الأمطار فأصابت جنده المجاعة وتشتتوا فلم يجتمعوا بعد هذا، وأراد ساموري أن يعود إلى سانتكورو لكن الفرنسيين رفضوا إلا أن يأتيهم بأبنائه رهينة ويسلم أسلحته فعظم عليه ذلك فواصل القتال حتى قبض عليه غدراً ونفي إلى جزيرة أوجويه Ougoue

في سنة ١٨٩٨/١٣١٧ وقيل نفي إلى الجابون، وتوفي في سنة ١٩٠٠/١٣١٩ رحمه الله تعالى، واستقرت فرنسا في غرب إفريقيا عقب هذا الانتصار المفاجئ.

وقد ترك حفيدة أحمدوا سيكوتوري ليتولى المقاومة من بعده وليصبح أول رئيس لغينيا التي حصلت على استقلالها سنة ١٩٥٨.

أما عدوه تيبا فقد استولى الفرنسيون على بلاده، وهذه عاقبة كل خائن عميل.

وقد انتصرت فرنسا لثلاثة أسباب رئيسة:

١. العداء بين القادة المسلمين والخيانة والعمالة من بعضهم.
٢. مساعدة الوثنيين لهم.
٣. القوة الحربية كانت لصالحهم في السلاح والعتاد.

لكن يكفي ساموري شرفاً وفخراً أن أقام دولة نشرت الإسلام وحاربت الوثنية كل تلك المدة، ويكفيه أنه وقف أمام دولة عظمى آنذاك ثلاثة عشر عاماً أذاقها الهزيمة مرات عديدة، ووحد شعب الماندينجو بعد أن كان قبائل متناثرة

وعشائر متناحرة فرحمه اللّه ورضي عنه، وأعلى درجته في عليين.

موقف جليل في حياة ساموري توري:

هناك موقف عظيم في حياة الإمام ساموري توري رأيت أن آتي به مذيلاً سيرته حتى يبرز ولا يُنسى، وهو أن الفرنسيين اختطفوا ولده وساوموه على رده بمساومات لم يرضها فلم يقبل فأخذوه إلى فرنسا ست سنوات، واستطاعوا التأثير عليه وتغيير أفكاره ليصبح منهجه مخالفاً لمنهج أبيه تماماً وأرسلوه إلى أبيه ليقنعه بترك الجهاد، وهنا تجرد ساموري توري للّه تعالى، وعظمت عنده عقيدة الولاء والبراء، وقتل ولده في مشهد عام بين الناس حتى لا يؤثر على حركة الجهاد، وهذا الصنيع العظيم يصدق فيه قول اللّه تعلا: "لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادون من حاد اللّه ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" فلله در هذا الإمام العظيم.

٤- أمير البيان
شكيب أرسلان

١٢٨٦-١٣٦٦

١٨٦٩-١٩٤٦

جاحظ عصره، وإمام من أئمة الكتاب، وشاعر مجيد، وناثر فذ سخر قلمه طويلاً لنصرة قضايا العرب والمسلمين، وهو من العلماء بالأدب والسياسة والتاريخ، يقول عنه الأستاذ علي الطنطاوي:

إن شكيب أعظم شخصية عربية، وكان لسان الإسلام، وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب في ضعف حجم الأغاني".

ولد في الشويفات بلبنان سنة ١٨٦٩/١٢٨٦، من أسرة تنوخية الأصل، والتنوخيون هم الذين كانوا ملوك الحيرة، وتقلب في الوظائف والمناصب، فكان قائم مقام في الشوف ثلاث سنوات، وانتخب نائباً عن حوران في مجلس "المبعوثان" العثماني وهو بمثابة البرلمان لكل الشعوب العثمانية، وسكن دمشق في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، ثم انتقل إلى جنيف ليعيش في سويسرا خمساً وعشرين سنة يدافع فيها عن قضايا الإسلام والمسلمين، ثم عاد إلى بيروت فتوفي بها ودفن بالشويفات.

تلك كانت سطوراً مختصرة عن سيرته التي تحتمل مجلدات، وهو من طائفة الدروز الذين يسكنون جبل لبنان، لكن شكيباً كان قد تسنن وتعبد وصلى وصام وحج على منوال أهل السنة، وتزوج امرأة من أهل السنة، ولهذا فمن الدروز من لا يراه درزياً ومن أهل السنة من لا يراه سُنياً لكن زوجه أكدت انتسابه إلى أهل السنة ولله الحمد والمنة، كما ذكر ذلك العالم الأديب أحمد الشرباصي نقلاً عن زوجه نفسها حيث قابلها وذكرت له ذلك، وزوجه هذه شركسية قفقاسية تزوجها الأمير شكيب في اسطنبول لما كان عمرها عشرين سنة، وكان هو قد جاوز الأربعين، وليس له غيرها.

وقد نبغ شكيب أرسلان رحمه الله تعالى مبكراً، فأخذ في نظم الشعر وكتابة المقالات وهو لم يتعد الستة عشر عاماً، ولقد رآه الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لما نُفي إلى لبنان فقال له : إني أعرف اسمك، وستكون من أعظم الشعراء، هذا وقد كان عمره آنذاك سبعة عشر عاماً، ثم توثقت صلته بالأستاذ محمد عبده، وزاره في مصر وخالطه طويلاً، وجلس إلى جمال الدين الأفغاني باسطنبول، ورأى

الشاعر أحمد شوقي فيها، واجتمع بالأستاذ رشيد رضا في بيروت، وكل هذا طبع في قلب الشاب وعقله وجوب العناية بالمصادر الإسلامية والبحث في آلام الأمة وآمالها، والاهتمام بشؤون العالم الإسلامي، وهذا جعله يشارك أمته همومها، فمن ذلك أنه شارك في الجهاد ضد الإيطاليين في ليبيا سنة ١٩١١، وقاد ستمائة جمل تحمل المؤمن من مصر إلى برقة، وظل في موطن الجهاد ثمانية أشهر تقريباً.

وقال الزعيم الليبي سليمان الباروني: "لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب ونفذتها بحذافيرها لما ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقه، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث سنوات أو أربع".

وسافر إلى المدينة المنورة سنة ١٩١٤ ليفتح مدرسة فيها.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ أقام بمعان - في جنوب الأردن الآن- قرابة شهر ومعه مائة وعشرون مجاهداً، ثم انضم إلى الجيش العثماني الحجازي، وكان لا يثق بالحلفاء ويهاجمهم، ويعارض الثوار العرب في ثورتهم ضد الدولة العثمانية، وذلك لإخلاصه إخلاصاً منقطع النظير لها،

ولأنه يعلم أن الخلفاء سيستولون على البلاد العربية بعد الحرب، ولذلك أرسل إلى أحد الأشراف الثوار قائلاً:

"ماذا تصنعون؟

أتقاتلون العرب بالعرب؟

وتسفكون دماء العرب بأيدي العرب، ولأجل أن تكون سورية لفرنسا، والعراق لانكلترا، وفلسطين لليهود؟".

فلما انتهت الحرب وانهزمت الدولة العثمانية رأى أن الدولة العثمانية بقيادة الكماليين أدارت ظهرها للعروبة والإسلام، وأن مصطفى كمال قد أسرف في عداوة الإسلام، فقرر أن يدعو إلى الوحدة العربية بعد أن كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية، وله عذره الواضح في هذا؛ إذ بعد إلغاء الخلافة لم يكن هناك دولة إسلامية جامعة، وكانت الدول العربية والإسلامية تتساقط في أيدي الاحتلال واحدة بعد أخرى، وكانت الأحوال غير مواتية آنذاك للدعوة إلى الجامعة الإسلامية فدعا شكيب إلى الوحدة العربية حتى قال الملك فيصل بن الحسين له: "أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية وأراد أن تكون وحدة عملية" هذا على أن

شكيب لم ينسى الوحدة الإسلامية لكنه كان سياسياً عملياً يعمل في المتاح له حَسَب أحوال زمانه، هذا وقد كان شكيب حريصاً على إعادة الخلافة عقب إلغائها في تركيا، ويكاتب الشيخ رشيد رضا في ذلك، ويقترح في هذه المسألة اقتراحات لكن الأمر كان أكبر منه.

ثم إنه لما احتلت فرنسا سورية الكبرى رفض أن يبقى فيها فخرج إلى ألمانيا التي كان لها صلات بالدولة العثمانية قوية ودخلتا الحرب معاً، فرحب به القوم، وأقام في برلين، ورافق الإمبراطور غليوم في زيارته لسورية بعد ذلك.

ولما كان مقر جمعية الأمم - عصبة الأمم- آنذاك في جنيف بسويسرا ترك الأمير شكيب إقامته في برلين واستقر في جنيف لمدة ربع قرن تقريباً، مدافعاً عن قضايا العروبة والإسلام، وشارك في أعمال ومؤتمرات كثيرة كانت تعقد في سويسرا وأوربا ومنها مؤتمرات الوفد السوري الفلسطيني الذي كان يرفع ظلامته إلى جمعية الأمم "عصبة الأمم"، وما أشبه الليلة بالبارحة !!

من اللطائف عن شكيب:

لما حج كان الوقت صيفاً فلم يستطع أن ينام ثلاثة أيام بلياليهن، فأرسله الملك عبدالعزيز إلى بستان عبدالله السليمان في الزاهر بمكة المكرمة فنزل في بركة البستان فبرد جسده فنام !! ثم أوصى الملك بإصعاده إلى الطائف حتى يأتي وقت الحج.

ولما كان في الحجاز عرض عليه الملك عبدالعزيز أن يرسل له جارية ليتسرى بها فرفض قائلاً: "إنني متزوج، وأنا أحب زوجتي، وفوق هذا فإن زوجتي تغضب علي إذا عرفت"!!

له رسالة منشورة باسم "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" قال عنه الأستاذ رشيد رضا:

اضطربت بها بعض دول الاستعمار، وزلزلت زلزالاً شديداً، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها، وهي أحق بها وأهلها، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون مَن أغروها بها.

وكذلك منعت فرنسة دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها.

أسلوب شكيب في الشعر والكتابة:

كان الأمير شكيب أرسلان يُعَدّ شاعراً من مقدمي شعراء عصره لكنه في النثر من أهل الطبقة الأولى، وكان يُغرب أحياناً في عباراته وكلماته فيأتي بها عربية قحة صعبة، وكان يسجع أحياناً، لكنه إذا أطلق ليراعه العنان فإنه يأتي بكلام رائع جليل، أكتفي منه بهذا الذي كتبه بعد زيارته الأندلس شعراً ونثراً:

يقولــون كانــت أمــةٌ عربيــة	بأنـدلسٍ سـادت بهـا جَـمَّ أَعْصُـرِ
وقـد عمـرت أقطـار أنـدلسٍ بهـم	فكـم بلـدٍ فخـم ومِصْـرٍ مُمَصّـرِ
وكـم أَرْبُعٍ خُضْـر وحَرث مطبـق	وفاكهـــة رغـــد وزهـــر منـــوِّرِ
وكـم قائـد قَـرْمٍ وجنـد مـدرب	وكـم سـائس فحـل وأمـر مُـدبّرِ
وكـم بطـل إن ثـار نقـعٌ رأيتـه	يبيـع بأسـواق المنايـا ويشـتري
ومـا شئت مـن علـم ورأي وحكمـة	ودرسٍ وتحقيـق وقـول محـررِ
إلى شمـم جـم ومجـد مؤثـل	وفي عـزة قَعْسـا ووَفْـر مُـوَفّرِ
نعـم كـان فيهـا مـن نـزار ويعـرب	جموع نخيل الأرض في يوم محشرِ

فراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى   لهم كل رِكْز غير ذكرٍ مُعطرِ

وقد قال في كتابه "الحلل الأندلسية":

"نعم: حواضر كالبحار الزاخرة، كانت تموج بالبشر، وحصون كالجبال الشامخة تحصى بالألوف ... وجيوش كانت حصى الدهناء ورمال البطحاء، ومساجد كانت في الجوامع المشهورة تَغَصّ بألوف الألوف من المصلين، ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين، وما شئت من إسلام وإيمان، وحديث وفرقان، وأذان يملأ الآذان، وما أردت من نحو ولغة وطب، وحكمة ومعان وبيان، بلغة عربية عرباء، يحرسها علماء كنجوم السماء، وما أردت من عيش خَضْل وزمن نَضْر ... كل هذا عاد كهشيم المحتظر، كأن لم يَغْن بالأمس، ولم يبق منه إلا آثار صوامت، وأخبار تتناقلها الكتب، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر، ولا سمر فيها سامر ...

وأما السائح الشرقي فإنه يقضي سياحته في إسبانيا متأملاً غائصاً في بحار العبر، هائماً في أودية الفكر، كلما عثر على أثر قلبي خفق له قلبه، واهتزت أعصابه، وتأمل في عظمة قومه الخالين، وما كانوا عليه من بُعد نظر، وعلو

همم، وسلامة ذوق، ورِفق يد، ودقة صنعة، وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فيما وراء النهر في بحبوحة النصرانية، وملتطم أمواج الأمم الأوربية، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين، ويشيدوا فيها ألوفاً من الحصون، وأن يملأوها أساساً وغراساً كأنهم فيها أبد الآبدين.

فلا يزال قلب السائح المسلم في الأندلس مقسماً بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذي ملكوه، والوَجْد على ضياع ذلك الإرث الذي عادوا فتركوه، وأكثر ما يغلب عليه في سياحته هناك هو الشعور بالألم، فهو لا يزال يسير بين تأمل وتألم، وتفكر وتحسر ...".

تدينه وفهمه للإسلام:

كان الأمير شكيب -في الجملة- متديناً، محافظاً على الصلاة في زمن كانت الصلاة فيه مهجورة من أكثر الناس، وكان محافظاً على دين أسرته، وكان عارفاً بشرائع الإسلام -في الجملة- وإليكم هذه الوقائع التي تدل على هذا:

١. في سنة ١٩٣٥ رأس الأمير شكيب أرسلان المؤتمر الإسلامي الأوروبي الذي انعقد بجنيف، وكانت إحدى جلسات المؤتمر في يوم جمعة، فأوقف الجلسة ليصلي الحاضرون الجمعة، فخطب المصلين في الفندق وصلى بهم إماماً.

٢. في سنة ١٩٣٧ زار حلب، وخطب في جامعها الكبير قائلاً:

" إن المسلم يستمد استقلاله من القرآن، وإن إيمان المسلم غير الكامل إنما هو إيمان ناقص، ولا توجد الوطنية الصحيحة إلا في قلب المؤمن العامر بالإيمان".

٣. أرسل بنتيه إلى لبنان ولم يسمح لهن بالبقاء في جنيف، وذكر السبب لولده غالب عندما اشتاق إلى أختيه وطلب من أبيه إحضارهما فقال:

"إنني أشد منك عذاباً في فراقهن، لكني لا أريد أن يخرجن افرنجيات، فلو ربيتهن في جنيف لخرجن بدون لغة

عربية، وبدون عقيدة إسلامية، وما يعود ممكناً إعادتهن إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن".

٤. عند حديثه عن حدود العلاقة بين الدين والدولة مثل لما يحصل في أوروبا من علاقة بين الفاتيكان وإيطاليا، وفي بلجيكا وغيرها فيقول:

"إذن فالمدنيّة تجتمع مع الدين، والحكومات الشرقية التي تزعم أنها تقطع صلتها بالدين الإسلامي اقتداء بحكومات أوروبا -التي تزعم عنها قطع الصلة بالدين المسيحي- إنما هي حكومات تضلل أفكار السُذّج من رعيتها، وتموه عليهم، وتقصد حرباً وتوري بغيرها، وناشروا دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون".

فكان شكيب بهذا من أوائل من رد على العلمانيين في العالم العربي.

لكن هذا كله لا يعني أنه بريء من أخطاء شرعية وقع فيها لكن أقول إنه في الجملة متدين بدين الإسلام معتز به، مقيم للشعائر، وهذا من مثله في ذلك الزمان عزيز، والله أعلم.

وبعض ما ذكرته يؤيد ما نقلته في بداية المقالة عن سنيته، والله أعلم.

همة شكيب:

كان الأمير شكيب أرسلان ذا همة عالية متوقدة تسوقه إلى العمل الكثير بدون كلل ولا ملل، ومن صور تلك الهمة:

١. رحلاته:

قد ارتحل الأمير كثيراً إلى بلدان عديدة، في زمن كان الانتقال فيه بالقطار والسيارة والباخرة هو الغالب أما السفر بالطائرة فكان قليلاً؛ إذ لم تنتشر الطائرات آنذاك انتشارها هذا الزمان، فكان قد زار الاتحاد السوفيتي بمناسبة مرور عشر سنوات على بدء الثورة البلشفية، وذلك سنة ١٩٢٧ فسافر بالقطار إلى موسكو، وفي السنة نفسها زار أمريكا بدعوة من عربها للمشاركة في مؤتمرهم في ديترويت.

وفي سنة ١٩٢٩/١٣٤٨ حج بيت الله الحرام، وأعجبه أن لم ير في البلاد إلا مسلمين وليس فيها أثر للاحتلال.

وفي سنة ١٩٣٠ ارتحل إلى الأندلس (اسبانيا) ماراً بفرنسا، وكتب عن هذه الرحلة كتابه "تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط"

وارتحل إلى البوسنة والهرسك، وألف فيها كتاباً مازال مخطوطاً.

وفي سنة ١٩٣٤ اشترك في الوفد الذي سعى في الصلح بين الملك عبدالعزيز بن سعود والإمام يحيى إمام اليمن، فنجح الوفد في مهمته وتوقفت الحرب.

وفي السنة نفسها قابل موسوليني الطاغية الإيطالي، وتحدث معه ليخفف قبضته على مسلمي ليبيا.

هذا عدا عن رحلاته إلى تركيا ومصر وليبيا.

٢. كثرة مؤلفاته ورسائله ومطالعاته:

يعد شكيب من المكثرين جداً في التأليف، وصاحب همة عالية جداً في القراءة وسأورد أمثلة على ذلك:

أ. ما كتبه في سنة واحدة فقط هي سنة ١٩٣٥:

الرسائل الخاصة: ١٧٨١، المقالات: ١٦٧، قصيدتان، كتاب عن أحمد شوقي في ٣٥٠ صفحة، وحواشي ابن خلدون

في ٥٦٠ صفحة، طبع ديوان أخيه: روض الشقيق، وترجم لأخيه، وفسر غريب الديوان، الجزء الأول من كتاب الأندلس، تهيئة ديوانه الخاص للطباعة، تلخيص كتاب ليفي بروفنسال.

وهذا مقدار عظيم في سنة واحدة.

ب. وقال سنة ١٩٣٠:

"نحن هنا في ديار غربة، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا؛ إذ ما معين ولا مساعد، ونكتب بخط بناننا ألفاً وخمسمائة صفحة في كل شهر؛ إذ ليس عندنا كاتب سر ولا حافظ أوراق، ولدينا أشغال كثيرة مدهشة تتعلق بمهمتنا السياسية التي هي قضية سورية وقضية فلسطين وغيرها من القضايا العربية، وعلينا أن نقرأ الصحف اليومية، وكثيراً من المجلات والكتب، وأن نراقب حركة العلم والسياسة، وحق العلم أن يطلب من المهد إلى اللحد، ولقد بلغنا سن الستين".

جـ. وكان قد حفظ أكثر مقامات الهمذاني والحريري، وعكف على مقدمة ابن خلدون، واطلع على كتب كثيرة جداً منها: نفح الطيب، والنهاية لابن الأثير، وطبقات ابن سعد، ورحلة ابن جبير، والمخصص لابن سيدة، ولسان العرب، وتاج

العروس، ومعاهد التنصيص للشريف العباسي في شرح شواهد التلخيص، وكتب الجاحظ وابن المقفع، والأغاني والعقد الفريد، وخزانة الأدب.

د. وترجم كثيراً من الكتب والمقالات من الفرنسية إلى العربية.

هـ. أما مؤلفاته فهي شيء عجيب، عبر عنه الأستاذ محمد رجب بيومي حفظه الله بقوله:

"لو تفرغت لجنة علمية مخلصة لجمع آثار الرجل ما استطاعت بعد طول الكد اللاغب أن تبلغ شيئاً ذا بال في طريقها البعيد؛ لأن الأمير - كافأه الله أحسن المكافأة- كان يراسل أمهات الجرائد في مصر وسوريا وتونس والعراق ومراكش والمهجر، ويكاتب أفذاذ الأعلام من ذوي الرأي السياسي والأدبي في شتى ديار الإسلام، ثم يصدر مجلة باللغة الفرنسية تكون لسان العرب في دوائر الاستعمار، وقد ذكر أحد أصدقائه أن الرسالة الواحدة من رسائله كانت تتجاوز العشرين صحيفة يكشف فيها الرجل عن دقائق لا يلم بها سواه، وهي بعد رسالة فردية يكتبها الأمير ليقنع صاحبه وحده

بوجهة نظره الخاصة في مسألة عامة!! فماذا نقول في مقالاته المسهبة التي كانت تحتل الصفحات الأولى دائماً من أمهات الصحف الذائعة في الشرق الإسلامي؟ ثم ماذا نقول في مذكراته الضافية عن استعمار إيطاليا في طرابلس، وفظائع فرنسا في سورية ولبنان، ومأساة اليهود في فلسطين، ومحاولة الظهير البربري في المغرب، ودور الخلافة العثمانية في الأحداث العربية، ثم تراجمه الضافية لأصدقائه الأعلام ممن فاجأوه بوفاتهم ... هذا غير مؤلفاته المتداولة، وهي على كثرتها المشرفة ليست غير صبابة من كأس تمتلئ وتفيض.

إن من يقف على آثار الأمير القلمية وحدها لا يدهشه أن يسمع عن ابن جرير والسيوطي وابن الجوزي ما سمع ... لقد ألف الكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد كتاباً قيماً عن حاضر العالم الإسلامي، قام بترجمته إلى اللغة العربية كاتب فلسطيني قدير هو الأستاذ عجاج نويهض، وشاء إخلاص المترجم أن يُعرض على الأمير ليقول كلمة موجزة تكتب في مقدمته، ولكن الرجل المكافح وجد الكتاب المحدود يتحدث عن العالم الإسلامي كله في القارات المختلفة حديثاً يتطلب

الإشباع والتفصيل، وقد غفل عن أمور كثيرة ما كان لمثل مؤلفه أن يدركها مهما واصل البحث وأحسن التعليل، فدفعته همته إلى التعليق على كل صفحة من صفحات الكتاب بما يجلو الغامض في زاوية مبهمة أو يرد الحق في خطأ ناشز حتى صار الجزء الواحد بعد تعليقات الأمير أربعة أجزاء ضخمة لا نظير لها فيما كتب يومئذ عن حاضر الإسلام، وقد نسي الناس كلام الكاتب الأمريكي إذ صار دون التعليقات الضافية بحيث لا يشفي غلة القارئ في شيء.

أما تعليقاته على تاريخ ابن خلدون فتنحو هذا المنحى من التوضيح والبسط والاستطراد ... حتى خص الأتراك وحدهم بثلاثمائة صحيفة من ذات الحجم الكبير، وأترك للقارئ أن يتصور تعليقاً عن أمة من الأمم يصل إلى ثلاثمائة، ولو أن الأمير أفرد مؤلفاً خاصاً بالأتراك وخرج مستقلاً في هذا العدد من الصفحات لكان عملاً قائماً برأسه".

٣. كثرة مناصبه ووظائفه وأعبائه:

كان الأمير شكيب كثير المناصب والوظائف، فقد تولى في شبابه قائم مقام قضاء الشوف لبنان لمدة ثلاث سنوات

ثم توالت عليه المناصب والوظائف، فقد كان عضواً في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) في دمشق ثم رئيساً له، وكان رئيس اللجنة الجرمانية الأفغانية التي تألفت في برلين سنة ١٩٢١، ورئيس النادي الشرقي في برلين، وعضو الجمعية الآسيوية الفرنسية، وأمين سر المؤتمر الإسلامي الكبير الذي انعقد بمكة المكرمة وكان عضواً في كثير من الوفود التي عقدت مؤتمراتها في أوروبا دفاعاً عن قضايا العرب والمسلمين، وكان مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري، وكان نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان العثماني، وإذا نظر الناظر إلى هذه الأعمال والأعباء مع أعبائه التي ذكرتها في الفقرتين السابقتين علم أي صنف من الرجال كان شكيب، وأي همة كانت له.

٤. استمرار العمل والمطالعة على اعتلال في صحته:

كان جسد شكيب قد كَلّ وتعب من كثرة العمل والجهد في المطالعة، لكنه لم يتوقف قط، وقال عن نفسه:

"بلغنا سن الستين، وأصبحنا مضطرين لمداراة صحتنا، وتجدنا نغسل أعيننا بمغلي البابونج مرتين وثلاثاً كل يوم بدون

فتور؛ تسكيناً للحريق الذي يصيبها من فرط الكتابة والمطالعة".

وكان مريضاً بتصلب الشرايين، والكلى، ولما بلغ السابعة والخمسين اضطر للاستعانة بكُتّاب يملي عليهم فيكتبون، وقد منع بعد ذلك من الكتابة بأمر الطبيب بسبب ضعف البصر وارتعاش اليد.

٥. معرفته باللغات:

كان يتقن العربية جداً بل يعد في الصف الأول من أدبائها وعلمائها، ويتقن التركية والفرنسية، ويعرف الألمانية معرفة متوسطة، ويعرف الإنجليزية ومعرفته بها أحسن من معرفته بالألمانية، وقد ساعده إتقانه للفرنسية على الاطلاع على علوم وفنون وآداب كثيرة لم تكن متاحة لعارفي العربية وحدها آنذاك.

ـ مكانة شكيب:

ذكر الأستاذ أحمد الشرباصي في كتابه "شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام" خبراً له دلالته، فقال:

نشرت مجلة الضياء الهندية خبراً مطولاً عن مجمع انعقد في سنة ١٩٣٥ ليبحث أي الرجال من المسلمين يستحق بأن يوصف بأنه أعظم رجل في العالم الإسلامي اليوم؟ وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الأدباء والمفكرين، وخطب كل واحد منهم يؤيد رأيه فيمن يكون أرجح ميزاناً بين رجال الإسلام المعاصرين، وترددت أسماء محمد إقبال وشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا وأبو المكارم الدهلوي وسليمان الندوي وعبدالكريم الخطابي والسيد أحمد الشريف السنوسي ومولانا محمد علي وحسين أحمد المهتدي وغيرهم، ولكن الأمير شكيب أرسلان فاز بأكثرية الأصوات في هذا الاجتماع.

وهذا يدل على مكانة شكيب عند العجم، ولا شك أن مكانته عند العرب أعظم وأجل، لكن هذا الجيل اليوم لا يكاد يعرف عنه شيئاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ـ وفاته:

انتقل إلى وطنه لبنان قبل وفاته بشهور، وسُعد به إذ رآه مستقلاً، وكان ذلك سنة ١٩٤٦، لكنه لم يبق سوى بضعة

أشهر ثم توفي بعدها ليلة الخامس عشر من المحرم سنة ١٣٦٦/ ٩ديسمبر ١٩٤٦ ، وصلي عليه في الجامع العمري ببيروت.

وقبل أن يموت بأيام أوصى وصيته الأخيرة، وكان فيها: أوصيكم بفلسطين، وهذا قبل احتلالها بسنة وبضعة أشهر، فرحمة الله تعالى رحمة واسعة، وعوض الأمة عنه خيراً.

مزايا شكيب في سطور:

كان الأستاذ أحمد الشرباصي - رحمه الله- في دراسته عن شكيب قد ذكر مزاياه، وهأنذا أورد بعضها في سطور موجزة مثل العناوين:

١. شارك في الإحياء اللغوي، حيث استعمل مفردات كانت مهجورة، وبذل جهوداً في التعريب، ووضع مصطلحات عربية للألفاظ الاصطلاحية الافرنجية، وكان هذا عملاً مهماً، بل هو من بواكير التعريب، وله نظريات في الأدب واللغة جليلة، وشارك في إحياء الشعر العربي.

٢. بذل جهوداً كبيرة في الترجمة عن الفرنسية والتركية، وكان بهذا أحد الرواد في هذا الباب.

٣. بذل جهوداً كبيرة في إحياء تاريخ العرب وتاريخ الإسلام وتتبع مآثر العرب والمسلمين في الشرق والغرب، وعَرّف بحاضر المسلمين في زمانه.

٤. شارك في نشر التراث العربي وتحقيق المخطوطات.

٥. له آراء قيمة عن السياسة، ومشاركة حسنة فيها كما بينت في أثناء المقالة.

٦. له رحلات جليلة كان لها أثر كبير في تحريك الراكد من الأحوال العربية والإسلامية آنذاك.

هذا وقد ذكرت في أثناء المقالة غير ذلك من المزايا وإن كان من شيء بقي فهو اعتزازه الكبير بالعربية والإسلام.

تلك كانت سطوراً من سيرة الأمير شكيب الجليلة المطولة، وهي لا توفيه حقه لكن تظهر شيئاً من عمله وجهده وجهاده وهمته، وهذا مما يحتاجه أهل العصر والأجيال القادمة، فرحمه الله وغفر له.

٥- المجاهد

عمر الفوتي

١٢١٢ - ١٢٨٠

١٧٩٧ - ١٨٦٤

لقد كان في التاريخ الإسلامي الحديث رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعملوا طويلاً من أجل الذب عن حياض الإسلام، ولم يبخلوا بشيء في سبيل ذلك، فكان لهم مع أعداء الإسلام صولات وجولات أظهرت صوراً جليلة من البطولة والكفاح، ومن هؤلاء العظماء عمر بن سعيد بن عثمان تال الفُوتي الذي أنشأ دولة على مساحة كبيرة من حوض نهر النيجر وحوض نهر السنغال في غرب إفريقيا في دولتي السنغال ومالي حالياً، وذلك في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر الميلادي.

كان عمر الفُوتي صوفياً تيجانياً لكنه لم يكن من قَعَدة الصوفية المثبطين، ولم يكن من الغالين، لكنه كان صوفياً معتدل التصوف، ومن المجاهدين في سبيل الله تعالى، وقد كان لمجاهدي الصوفية أثر عظيم في صد الاحتلال والاستخراب عن بلاد الإسلام، وقد رأينا هذا في السنوسية والنقشبندية والرحمانية وغيرها من الطرق التي آثرت الجهاد ولم يكن فيها من ضلالات البدع الغالية ما كان في الطرق الصوفية الأخرى.

والطريقة التيجانية ربت رجالاً عظماء كان لهم أيادٍ بيضاء في الجهاد، وفي بعض الأحوال انتسب إليها عملاء للاحتلال وموالون له على وجه عجيب، وهذا أمر معلوم في الجزائر على الأقل فقد كان لبعض هؤلاء ولاء مُخْزٍ للاحتلال الفرنسي، والله أعلم.

ولد عمر الفوتي سنة ١٢١٢ / ١٧٩٧ في قرية حَلْوار -الواقعة على الضفة الغربية من نهر السنغال- التي تبعد حوالي أربعين كيلاً عن بودور على الحدود السنغالية الموريتانية.

وكان والده صالحاً عالماً فنهل الولد من علم أبيه ودرس على يديه الفقه وصحيح البخاري ومسلم.

وحفظ القرآن في الكُتاب وهو ابن ثمان سنين.

ولما بلغ العشرين سنة من عمره ارتحل إلى فوتا جالون -في السنغال اليوم- واستقر في مدينة ساتينا قرابة عشر سنوات يُدَرّس القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة للأطفال.

ثم توجه إلى الحجاز للحج مع أخيه علي، فسار إلى فَزّان أولاً ثم دخل القاهرة وناظر بعض علمائها بحضرة وكيل المغاربة محمد المغربي فلما رأى تفوقه في العلوم أعطاه مالاً وزاداً

وأذن له بركوب النهر للحج، فوصل إلى مكة المكرمة والتقى بشيخه محمد الغالي وحجا معاً، ثم توجّها إلى المدينة فدخلاها في المحرم من سنة ١٢٤٢، ومكث مع شيخه ثلاث سنوات، توجه أثناءها إلى القاهرة ثم إلى بيت المقدس ثم عاد إلى المدينة المنورة النبوية ثم حج مرة أخرى، وتزوج ابنة إمام الحرم المكي.

ثم قفل عائداً إلى مصر فمكث فيها بضعة أشهر من سنة ١٢٤٦، والتقى بأهله فيها وكان قد تركهم منذ ثلاث سنوات عندما قدم إلى القاهرة مريداً الحج ، ثم توجه إلى فزان ومنها إلى بَرْنو -من أرض تشاد اليوم- فقابل سلطانها عمر الذي حسده وسعى في قتله فنجاه الله -تعالى- ثم صَلُح ما بينهما.

ومن هناك انتقل إلى سُوكُوتو عاصمة الخلافة الفُودية -التي تحدثت عنها في ترجمة عثمان بن فودي في الجزء الأول من هذه السلسلة- وهي دولة جليلة بقيت مائة عام حطمها الانجليز مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ولقي الحاج عمر الفوتي -كما كان يسمى بعد عودته من الحج- في سُوكُوتو خليفة المؤمنين الشيخ محمد بَلُّو

بن عثمان فودي، وجمع في سوكوتو بين الدراسة والتدريس، وشارك في غزوات محمد بَلُّو بل جعله قائداً لجيشه لما رآه ميمون النقيبة مظفراً منصوراً، وكان يخطب في الجنود ويرفع من معنوياتهم، وتعلم طرائق الحرب التي اشتهر بها جيش الفوديين.

وأطلعه محمد بَلُّو على أسرار دولته، وجعله بجواره في سائر أعماله، ومكث معه سبع سنوات، وزوجه ابنته.

واطلع على الإنتاج العلمي الضخم الذي تركه عثمان بن فودي وأخوه عبدالله في شتى المجالات الشرعية خاصة أمور السياسية والحكم.

وفي سوكوتو تعلم طرق الحكم، واستفاد من الغزوات الحربية في بناء علومه العسكرية فكون الخبرة اللازمة لإقامة دولته الإسلامية بعد ذلك.

وقد استطاع جمع مال جزيل من غزواته مع الفوديين فاشترى به رقيقاً وتاجر به، مما مكنه من تكوين ثروة طائلة كانت معينة له في إنشاء دولته بعد ذلك، وفي سوكوتو ألف كتابه : "الرماح".

ولما مات الخليفة محمد بلو سنة ١٢٥٣ بقي عمر الفوتي في سوكوتو سنة واحدة ثم غادرها إلى بلاده، وقد اكتسب من هذه الرحلة الطويلة أموراً منها:

١. العلم الشرعي الذي مكنه من تبوئ المكانة الجليلة في بلاده، وأذعن له الناس.
٢. الوعي بمخططات الأعداء وأطماعهم في بلاد الإسلام عامة وفي إفريقيا خاصة.
٣. الخبرة الجهادية العسكرية.
٤. الخبرة في شؤون الحكم.
٥. الاطلاع عن كثب على أحوال المسلمين والوثنيين في وسط إفريقيا وغربها، وعرف أن المسلمين مشتتون ومتفرقون في مناطق كثيرة.

ومن أعظم ما تأثر به الحاج عمر الفوتي من بقائه مدة في الدولة الفُودية هو تأثره بآراء عثمان بن فودي الفقهية وعلى رأسها أنه يَعُدّ الموالين للكفار من المسلمين كفاراً يجب جهادهم، واعتماداً على هذا المبدأ قاتل الحاج عمر عدوه أحمد ابن أحمد وقتله كما سيأتي.

فعزم -لأجل كل ذلك- على تكوين دولة إسلامية تقف أمام مطامع النصارى وتنشر الإسلام وتحارب الوثنية.

مراحل إنشاء الدولة:

في سنة ١٨٣٩ وصل الشيخ عمر الفوتي إلى حَمدْ اللّه عاصمة ماسينا – وهي تقع اليوم في مالي - في عهد السلطان شيخو أحمدو بن حَمَدِ لُبُ الذي حاول قتله لكن اللّه تعالى نجاه.

وغادرها متوجهاً إلى سيجو segou وحاول ملكها –وكان كافراً- أن يقتله لكن اللّه نجاه بفضله، وكل محاولات قتله السابقة كانت لتوجس الحكام منه خيفة على ملكهم لِما رأوا من مواهبه واستعداده للجهاد.

ثم غادرها سنة ١٨٤٠ وتوجه إلى فوتوجالون وأقام في عاصمتها تيمبو timpo -وهي في غينيا اليوم- وقيل سكن في جقنكو أربع سنين، وتدخل في إصلاح أزمة الحكم التي نشأت بعد وفاة السلطان يحيى مما جعله يشتهر بين الناس.

ثم بعد قضائه أربع سنين هنالك توجه إلى موطنه فُوتا طُور ، وهي بالقرب من الحدود السنغالية الموريتانية اليوم، وزار

مسقط رأسه حَلْوار، فوصلها سنة ١٨٤٦/١٢٦٢ بعد غياب عشرين سنة تقريباً، فمكث فيها ستة أشهر ثم غادرها إلى فوتا جالون مرة أخرى.

وقد حدثت له حوادث كثيرة هنالك ، ودار في قرى وبلدات كثيرة إلى أن استقر في موضع يسمي دينغراوي ، وهي جزء من مملكة يِنْبَ سَاخُ وهو ملك وثني لكنه سمح للشيخ بالبقاء في مقابل صاع من الذهب كل عام ، فأقام بها ثلاث سنوات ثم بدأ الجهاد ، فكان جملة ما مكثه منذ رجوعه من الحج إلى بداية الجهاد ثنتي عشرة سنة.

وكان قد غزا بنفسه ثنتين وثلاثين غزوة حتى استشهاده، والسرايا التي أرسلها خمسين سَرِيّة فانظر إلى همته في الجهاد رحمه الله تعالى.

خطوات قطعها في الجهاد:

١. أقام الحاج عمر في منطقة من مناطق فوتا جالون بالقرب من الحدود المالية السنغالية الموريتانية ، وأنشأ مركزاً للتعليم وفد إليه أعداد كبيرة من الراغبين في تعلم العلوم الشرعية، وكان من هؤلاء من برع في العلوم

وتميز عن أقرانه فأرسلهم الحاج عمر إلى المناطق المجاورة للدعوة إلى الله ونشر الإسلام في القبائل الوثنية، وتنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم من قبل الفرنسيين ودعوتهم إلى الجهاد، وربي هؤلاء على الاستعداد للجهاد والذود عن البيضة ورد المعتدين.

٢. استعد للجهاد بتخزين المواد اللازمة له من سلاح ومؤنة وجند الرجال، وظل في هذه المرحلة قرابة عشر سنوات.

٣. أعلن الجهاد في سنة ١٢٦٩ / ديسمبر ١٨٥٢ بعد أن هاجمه ملك الوثنيين يمبا ساخو Yimba sakho، وسقطت مدينة تامبا، وحاز المجاهدون على غنائم كثيرة من الذهب، وهذا أدى إلى اشتهار الشيخ عمر الفوتي، ومهادنة سلطان فوتا جالون له وقد أدى هذا إلى استجابة أعداد كبيرة من الفوتيين لدعوة الحاج عمر، ولحقوا به للجهاد في سبيل الله تعالى في مدينة دينغراي

Dinguiray فكون منهم جيشاً كبيراً حارب بهم الوثنيين في سيجو وفي ماسينا وفي غيرها ، ودخل كثير من الوثنيين في دين اللّه تعالى، ومن لم يقبل منهم الإسلام حاربه.

٤. استولى على القرى والبلدات والمدن واحدة تلو الأخرى حتى استقر له الأمر في مناطق كبيرة من مالي والسنغال، ومن أهم وقائعه استيلاؤه على سيجو segou وتولية ابنه أحمدو تال عليها.

واستولى على ماسينا - على أنها كانت مملكة مسلمة- لأنها ساعدت امبراطور سيجو، بجيش يقدر بثلاثين ألفاً وهذه خيانة ، ونقض لعقيدة الولاء والبراء ، لأن امبراطور سيجو كان وثنياً، وقبض على أحمدو شيخو حاكم ماسينا وأعدمه، وعين الشيخ عمر ابنه أحمدو تال حاكماً عليها وذلك سنة ١٨٦٢/١٢٧٧م.

٥. بنى المساجد والمدارس، التي ظل بعضها مركز اشعاع كبير حتى بعد تقويض دعائم الدولة الفوتية مثل المدرسة التي في قرية بكيجوي.

٦. استطاع أن يجذب عدداً من الموالين له من خارج المنطقة، ومن أبرزهم الشيخ أحمد العلوي التيجاني الشنقيطي الذي وقف معه في جهاده، وترجم له، ونشر أخباره في شمال المغرب، ومنهم الشيخ محمد بن محمد الصغير العلوي الشنقيطي الذي جاهد مع الحاج عمر -على كبر سنه- ودافع عنه شعراً ونثراً، ومنهم الشيخ أحمد بن بدي العلوي الذي دافع عن جهاد الشيخ عمر الفوتي ورد الشبهات عنه.

وهذا يدل على أن الشيخ نجح في جذب الكبراء والعلماء من خارج المنطقة إلى جهاده وعمله.

٧. أقام دولته على الشريعة الإسلامية، وحرم الخمر وحطم الأصنام، وأشاع العدل بين الناس.

٨. هاجم الفرنسيين، ثم عقد معاهدة معهم سنة ١٢٧٦/ ١٨٦٠م أي قبل موته بأربع سنين.

وكان العداء مع الفرنسيين قد استحكم منذ سنة ١٨٥٤ حين طلب الشيخ منهم السلاح فلم يعطوه، ثم عمل الفرنسيون على إثارة الحكام الوثنيين والمسلمين ضده، بل العجيب أنهم استمالوا بعض الفقهاء ومنهم قاضٍ اسمه أبو المغداد، وكان قاضياً بسانت لويس، وعمل مع الإدارة الفرنسية مترجماً منذ سنة ١٨٥٥، واستمر ذيلاً لهم إلى وفاته سنة ١٨٨٠، وكان هذا الفقيه يطعن في الحاج عمر ويشكك في جهاده، وهكذا تنعدم عقيدة الولاء والبراء في نفوس الضعفاء ولو كانوا فقهاء.

وهاجم الشيخ عمر الفرنسيين في عدة وقائع لكن كانت قوة الفرنسيين أكبر بكثير، خاصة أن الوثنيين تمالأوا مع الفرنسيين عليه، وساعدهم بعض الحكام المسلمين وهذا لضعف عقيدة الولاء والبراء لدى هؤلاء الحكام، ولخوفهم من الشيخ عمر الفوتي، فرأى الشيخ عمر أن يهادن الفرنسيين حتى يتفرغ لإقامة دولته بعيداً عنهم لكن لم يعاهدهم في معاهدة

مكتوبة، إنما صنع ذلك ابنه أحمد من بعده ، وجعل الفرنسيون منطقة يسار نهر النيجر إلى الشرق للشيخ وما كان يمين النهر إلى الغرب فهو لهم، وتعاهدا ألا يقع أحدهما على الآخر.

وكان الشيخ عمر يعلم أن الفرنسيين إنما يريدون ابتلاع كل المنطقة، وإنما يعقدون المعاهدات للاستعداد والتهيؤ للحرب مرة أخرى، فمعاهداتهم لا تساوي المداد التي تكتب به، فقد احتلوا تلك المناطق بعد موت الشيخ بمدة طويلة، وذلك سنة ١٨٩١/١٣٠٨، وبقيت في أيديهم ٧١ سنة إلى أن أذن اللّٰه بانقلاعهم سنة ١٩٦٠/١٣٧٩، ولم يخرجوا إلا ليتفرغوا لمواجهة الثورة الجزائرية التي كانت في أوج قوتها آنذاك.

مؤلفات الحاج عمر:

كان له مؤلفات عديدة منها: النصح المبين، المقاصد السنية، تذكرة الغافلين، فلاح الطالبين، تذكرة المسترشدين، رماح الحزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، سيوف السعيد، سفينة السعادة.

صفاته الشخصية:

كان ذكياً، عابداً، زاهداً، صاحب همة عالية وإرادة قوية، وحماسة كبيرة، وكان له من صفات القيادة الشيء الذي هيأه لإقامة دولة كبيرة ورعايتها.

وكان خطيباً مفوهاً يأسر السامعين، وشاعراً وأديباً.

وساعدته رحلاته على الاطلاع الواسع على أحوال العالم الإسلامي على العكس من حال أغلب أهل زمانه وبيئته.

استشهاد الشيخ:

عقب سقوط ماسينا تحالف ضد الشيخ عمر زعماء المنطقة ومنهم بالوبو Balobo عَمّ أحمدو شيخو الذي أعدمه الحاج عمر كما ذكرت من قبل، وأخوه عبدالسلام وكانا قد هربا من ماسينا بعد استيلاء الحاج عمر عليها، وأحمد الكنتي البكائي الذي كان رئيس الطائفة البكائية في تنبكتو - في مالي اليوم- وانتهى الأمر إلى محاصرة الشيخ عمر في مدينة حَمْدِاللّه في ماسينا حيث حوصر ثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم نجح في الهرب منها مع بعض أبنائه وقواده، ولجأ إلى غار في جبل في بانجفرا فحوصر في قلعة

هنالك فأضرم أعداؤه النار فمات اختناقاً، وقيل إنه هو الذي أمر بإضرام النار حتى لا يقع في أيديهم وأنا أستبعد هذا ، فالله أعلم بما كان من ذلك، وقد وقع هذا في يوم الجمعة ٣ رمضان/١٢٨٠، ١٢ فبراير ١٨٦٠.

كان الشيخ المجاهد عمر الفوتي قد عين ابنه أحمدو تال نائباً عنه في سيجو، وطلب من أبنائه أن يطيعوه ويوالوه من بعده، وأخذ عليهم بذلك القسم ثم طلب منهم ومن سائر وجهاء بلاده إعادة البيعة لابنه لما دخل ماسينا لكن النزاع دب بين أبناء الشيخ بعضهم بعضاً ، وبين بعض وجهاء قادته بعد وفاة الشيخ عمر الفوتي، وتفككت الدولة إلى أجزاء سيطر على كل جزء منها قائد من قواد عمر الفوتي، وظل أحمدو تال بن عمر الفوتي يدعي السيطرة على كل دولة والده، وغير لقب الخلافة إلى لقب أمير المؤمنين سنة ١٨٦٨/١٢٨٤ أي بعد وفاة والده بأربع سنوات، لكنه ظل في نزاع مع إخوته.

وأما منطقة كارتا فقد حكمها مصطفى أحد عبيد الشيخ عمر الفوتي وذلك من سنة ١٨٦٠، أي قبل وفاة الشيخ عمر بأربع سنوات.

وحصل خلاف بين الأطراف المتحالفة للقضاء على الشيخ عمر، حيث اختلف بالوبو عم أحمدو شيخو مع أحمد الكنتي البكائي، وذلك لأن البكائين طلبوا من الماسنيين ورئيسهم بالوبو أن يكون لهم السيطرة والحكم في ماسينا، وعللوا ذلك بأن الماسينيين كانوا تحت حكم الشيخ عمر الفوتي، وأنهم أنقذوهم من حكم الفوتيين.

وحكم أحمد التجاني -ابن أخ الشيخ عمر- ماسينا بعد استشهاد الشيخ، وظل بها مستقلاً إلى وفاته سنة ١٨٨٧، واستفاد من الخلاف بين أحمد الكنتي وبالوبو، وتولى بعده أحمد المدني إلى سنة ١٨٩٠، وفي عهده صارت ماسينا مركزاً مهماً من مراكز تعليم الإسلام.

لكن الفرنسيين كانوا هم المستفيد الأكبر من كل تلك المؤامرات والخلافات، واستولوا على كل المنطقة بعد ذلك مستفيدين من الإذن العام الذي أعطاهم إياه الأوروبيون بعد معاهدة برلين سنة ١٨٨٤.

نتائج حركة الشيخ الحاج عمر الفوتي:

وهكذا انتهت دولة الشيخ عمر الفوتي عقب جهاد طويل لكنه حسبه أنه صنع التالي:

١. أنشأ كياناً وقف به في وجه الأطماع الفرنسية مدة طويلة نسبياً.

٢. جمع كثيراً من أفراد القبائل العديدة المنتشرة في المنطقة، ووحدهم تحت لوائه، وكانت المنطقة تئن من الفرقة والخلاف وكثرة الدول الصغيرة الضعيفة، فأنشأ دولة كبيرة نسبياً جمعت أشتاتاً من الناس.

٣. نشر الإسلام في تلك الأصقاع الوثنية.

٤. قضى على بعض البدع المنتشرة في المنطقة.

ولو تفاهم مع الحكام المسلمين في المنطقة أو تكاتف معهم لتغير التاريخ هنالك لكن أبت علة العلل وهي الاختلاف بين المسلمين إلا أن تهدم أركان هذه الدولة، وتفسح الطريق أمام فرنسا للاستيلاء على كل المنطقة بعد ذلك.

وبقي مصير تلك الدولة الإسلامية منبهاً ومذكراً للمسلمين في كل مكان أن عاقبة الاختلاف وخيمة، وأن

التفرق والحرب بين المسلمين هو الذي مكن الكفار من رقابهم في كل زمان ومكان، وأن عقيدة الولاء والبراء إذا اختلت بتعاون حكام المسلمين مع الكفار من الفرنسيين والوثنيين ضد إخوانهم المسلمين فإن عاقبة ذلك وخيمة جداً، والله المستعان.

قال عنه الفرنسيون:

قال عنه أحد الضباط:

"لقد كان الحاج عمر أكبر ممهد لمن أتوا بعده من الزعماء الإفريقيين الذين قاوموا -على غراره- الاستعمار الفرنسي؛ لأنه كان يمثل الطموح والحماس الصوفيين، وقد استطاع بنفوذه وقوة شخصيته أن يقوي رابطة الوحدة الإفريقية بين أتباعه المنتسبين إلى القبائل المختلفة"[١].

وقال عنه عنه مولارد:

---

(١) "ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال": ندوة دولية: ص٤١-٤٢.

"لولا الاستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة واحدة إسلامية في إفريقيا الغربية"[١].

وقال عنه بوبكر باري:

"إن الحاج عمر هو -بلا شك- أجل من تابع حمل مشعل الحركة الإصلاحية التي لم تفتأ منذ ناصر الدين[٢] في القرن ١٧ تهز الوضع السياسي والاجتماعي والديني في منطقة سنغامبيا"[٣].

"وقد كان الحاج عمر يحلم بتأسس إفريقيا الإسلامية التي تمتد من تشاد إلى السنغال، ومن مرتفعات آداماوا إلى مرتفعات فوت جالون وفوت تور"[٤].

وأختم بنص معبر عن جهاد الشيخ عمر الفوتي وأمثاله في إفريقيا السوداء للفرنسيين؛ فقد قال برنوا موري في مؤلفه "الإسلام والنصرانية في إفريقيا" إن الكولونيل أرشيغارد بأخذه

(١) المصدر السابق.

(٢) وهو مصلح موريتاني توفي سنة ١٦٧٧م.

(٣) المصدر السابق: ٥٧.

(٤) المصدر السابق ببلاد التكرور.

جنة وبند جاقرا أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من إفريقيا، ويسّر فتح السودان[١] بين يدي المدينة الأوروبية ... مما خلّد أعظم الشرف للعساكر الفرنسيين، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في بوايتيه[٢] بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل إفريقيا لولا هذا الظفر"[٣].

---

(١) يقصد بالسودان بلاد السُود من السودان إلى المحيط الأطلس، ويعبر عنها.

(٢) وهي المعركة التي جرت بينه وبين عبدالرحمن الغافقي في الأراضي الفرنسية بالقرب من باريس.

(٣) "ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال": ندوة دولية: ٢٧.

٦- الداعية الأديب

محمد البشير الإبراهيمي

١٣٠٦ - ١٣٨٥

١٨٨٩ - ١٩٦٥

إنه لمن حق الجزائريين أن يفخروا برجلين: أحدهما قد ذهب بالشهرة وعرفه الناس وهو الشيخ عبدالحميد بن باديس، والآخر قد طُوي في ثنايا الاستتار فلم يعد يعرفه إلا قليل من الناس وهو البشير الإبراهيمي، هذا وقد ابتدآ الجهاد معاً، وضمتهما مسيرة واحدة لكن الله تعالى كتب الاشتهار لابن باديس وكتب الأجر لهما معاً، إن شاء الله تعالى.

ولد الشيخ محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي سنة ١٣٠٦/١٨٨٩ في سطيف من أعمال قُسَنْطينة، من أسرة من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وينتهي نسبه إلى الأدارسة.

تعهده عمه العالم محمد المكي الإبراهيمي منذ صغره بالدراسة والنَهْل من الكتب الشرعية واللغوية وسائر علوم الآلة، وكان يُعْنى به حتى في أوقات الترويح عن النفس فكان يقول عنه: إنه لمن يكن يُخْليني من التلقين العلمي حتى حين كنت أخرج معه في طريق الفسحة والراحة، ولما مات عمه ناب عنه في التدريس وعمره قرابة أربع عشرة سنة!!

وهذا نبوغ عجيب وسن مبكرة للتصدر، وظل على ذلك حتى بلغ العشرين فرأى أن يشد الرحال إلى مصر لطلب العلم

فمكث فيها ثلاثة أشهر تردد أثناءها على دروس العلماء، والتقى الشاعرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ثم شد الرحال إلى المدينة النبوية المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- للقاء والده الذي هاجر إليها سنة ١٩٠٨ فراراً من ظلم الفرنسيين فوصلها سنة ١٩١١ بالقطار، ولقي هناك العلماء، لكن لم يعجبه حال أكثرهم، وقال: "طفت بحلق العلم في الحرم النبوي كثيراً فلم يَرق لي شيء منها، وإنما هي غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء" لكنه سُرَّ بعالمين هما حسين أحمد الهندي، والشيخ عبدالعزيز الوزير التونسي، وفي المدينة المنورة شارك الشيخ في الحياة العامة وعبر عن ذلك بقوله:

"هذا الطور هو الذي تفتح فيه ذهني لأعمال عامة، فشاركت برأيي في الآراء المختلفة بالسياسة العامة بالدولة العثمانية وعلاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلمي بالحرم المدني، وباشرت هذا الأخير بنفسي مع ثلة من شبان الطلبة المتنورين، وقد كاد أن ينجح لولا أن فاجأتنا الحرب العالمية الأولى، وثورة الشريف حسين بن علي التي كنت من المقاومين

لها بقلمي ولساني، ثم كانت هي السبب في إجلاء سكان المدينة إلى الشام والأناضول".

لكن نقطة التحول في حياته هي لقاؤه بشيخ الجزائر وكبيرها عبدالحميد بن باديس، الذي كان يزور المدينة النبوية المنورة آنذاك، وكان لقاؤهما للمرة الأولى، فتجاذبا الحديث عن الجزائر وكيفية إخراجها من محنتها وابتلائها بالمستخرب الفرنسي، وقد قال البشير موضحاً ما كان يجري بينهما من حديث:

"كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منـزلي فأسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، وكانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفضلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك

الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وُضعت فيها الأسس الأولى لجمعية علماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١"، فانظروا رعاكم الله إلى هذه الهمة العالية في السهر على مصالح المسلمين وتفقد شؤونهم والتخطيط لإصلاح أحوالهم، وقد عاد ابن باديس إلى الجزائر قبل عودة البشير بسبع سنوات، فكان له قصب السبق في نشر التعليم الإسلامي والعربي في الجزائر وإعداد النواة التي أسست فيما بعد جمعية علماء المسلمين الجزائريين.

وبقي الإبراهيمي في المدينة النبوية المنورة إلى سنة ١٩١٧، ثم خرج منها قسراً حين أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة عنها وهو ما عرف في التاريخ بـ "سَفَر بَرْلك"، وذلك بسبب اشتداد ثورة الشريف الحسين بن علي زمن الحرب العالمية الأولى، فغادر الإبراهيمي وأسرته المدينة إلى دمشق التي دخلها شتاء سنة ١٩١٧، واختلط بعلمائها وكبرائها فكان كما قال "لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع" ودرّس تحت قبة النسر الشهيرة في الجامع الأموي الحديث والتفسير، وكان يملي الحديث من حفظه بإسناده ثم يَكُرّ عليه بالشرح،

وجذب الناس إليه بطريقته وسمته، ودرّس في مكتب عنبر وهو أول ثانوية في سوريا، وكان يُنتخب لها أحسن الأساتذة وأبرز العلماء، وقد تأثر به الطلبة، وكان منهم د.جميل صليبا الذي قال: "أعجبنا بسعة علمه، وقوة ذاكرته، واستقامة منهجه؛ لأنه كان يملي علينا قصائد المتنبي والبُحْتري وأبي تمام من حفظه من أول القصيدة إلى آخرها، ويقرب معانيها منا بالتفسير المحكم، والشرح الدقيق، والتعليل الأدبي الجميل، حتى ولّد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها"، وكان يغش الندوات العلمية والمجالس الأدبية، وكان الحاضرون يحبونه لأنه كان متواضعاً، حسن الطويّة، فَكِهاً مع الخاصة، يُسمعهم نوادر الأعراب وقصصهم، وقد قال البشير عن أيامه في دمشق:

"أشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أَقَرَّ عيناً وأسعد حالاً".

وقد تزوج في دمشق في سن التاسعة والعشرين بفتاة تونسية من أصل تركي كانت أسرتها قد خرجت من المدينة

زمن خروج الإبراهيمي وأسرته، وأنجب الشيخ منها ولداً ذكراً لم يلبث أن مات، وقد أنجب في الجزائر بعدما عاد إليها محمداً وأحمد وبنتين، وفي دمشق دفن أباه وابنه وحماه في مقبرة الدحداح، وفي هذا يقول:

"ويا تربة الدحداح بوركت من تربة، لا يذوق الغريب فيها مرارة الغربة، ولازلتِ مسقطاً لرحمات الله، إنني أودعت ثراك أعز الناس عليّ: أبي وابني وجَدّي أولادي فاحفظي الودائع إلى يوم تُجَزى الصنائع ..".

ولما عاد البشير إلى الجزائر سنة ١٩٢٠ لقي ابن باديس واتفقا على بدء العمل، وكان ابن باديس مستقراً في أقصى الشرق الجزائري في قسنطينة، والبشير في وهران في الغرب الجزائري، وهكذا اكتنف العالمان الكبيران الجزائر من طرفيها وابتدآ العمل الجاد لتكوين نواة جمعية علماء المسلمين الجزائريين، ثم آثر البشير أن ينتقل إلى تلمسان وهي قريبة من وهران لكن تلمسان أصغر منها وأهدأ، وهناك أخذ الشيخ البشير في تدريس الطلاب والالتقاء بالعامة في زيارات يعقدها يوم الجمعة في قرى وبلدات ذلك الإقليم، ولم تنقطع صلته

بأخيه ابن باديس على بعد المسافة بينهما وصعوبة في وسائل المواصلات آنذاك، وقد قال البشير: "في هذه الفترة -١٩٢٠ إلى ١٩٣٠- كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى كل أسبوعين أو في كل شهر على الأكثر يزورني في بلدي سطيف أو أزوره في قسنطينة فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها في الشعب بالعدل ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامج للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نعمل للمفاجئات حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصاً لتأسيساً جمعية العلماء الجزائريين".

ولما أُسست جمعية العلماء الجزائريين نشط ابن باديس والبشير في الدعوة والعمل نشاطاً عظيماً، أما البشير فقد كان يلقي في تلمسان عشرة دروس في اليوم الواحد!! من بعد صلاة الصبح إلى العشاء، ثم ينصرف بعد العشاء إلى بعض المحافل ليلقي محاضرات في التاريخ الإسلامي، وأما أيام العُطلة الدراسية فقد كانت له فيها جولات سياحية في القرى، وهذا النشاط الضخم كان له ما يقاربه عند ابن باديس في قسنطينة والطيب العُقْبي في الجزائر العاصمة، وقد أثمر هذا كله عن

بناء أربعمائة مدرسة إسلامية، وأكثر من مائتي مسجد للصلوات، وهذا لم يكن ليرضي الاستخراب الفرنسي الذي كانت العربية من ألد أعدائه والإسلام من أشد خصومه، فاعتُقل الشيخ البشير ونفي إلى صحراء وهران.

وكان سبب هذا الاعتقال أن فرنسا أرادت من الإبراهيمي في أوائل الحرب العالمية الثانية أن يتحدث من الإذاعة بأحاديث يستميل فيها الشعب الجزائري لفرنسا ليؤيد موقفها في الحرب، فلما رفض الشيخ نفته السلطات الفرنسية إلى قرية آفلو في جنوب وهران، سنة ١٩٤٠.

ثم ما لبث أن توفي الشيخ ابن باديس رحمه اللّه بعد أسبوع من نفي البشير، واجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته وانتخبت الشيخ البشير رئيساً للجمعية بالإجماع وأُبلغ بهذا الاختيار وهو في منفاه في صحراء وهران فصار يعمل بما يستطيعه وهو على حالته تلك، ويدير الجمعية بالمراسَلة، وكان في انتخابه تحدٍ لفرنسا كبير.

حتى إذا عاد من منفاه أواخر سنة ١٩٤٢ مكث قليلاً في تلمسان ثم ارتحل إلى الجزائر واستقر بها، وأقبل على الوعظ

والإرشاد وإنشاء المدارس، ورئس تحرير جريدة البصائر، وقام على شؤون جمعية العلماء، وأنشأ أول معهد ثانوي كبير في قسنطينة وسماه باسم ابن باديس تخليداً لذكرى رفيقه ووفاء له، وكان في سنته الأولى قد ضم حوالي ألف طالب!!

وفي سنة ١٩٤٥ عقب نهاية الحرب العالمية الثانية نزل كثير من الجزائريين إلى الشوارع فرحين بنهاية الحرب حاملين العلم الوطني ظناً منهم أن فرنسا ستخفف من قيودها عليهم، وكان ذلك في ٨ مايو، فما كان من فرنسا الغادرة إلا أن قتلت منهم آلافاً في أحداث همجية وكان جزاء الجزائريين كجزاء سنمار، وسيق الآلاف إلى السجون وكان منهم البشير الإبراهيمي، الذي مكث يعاني في السجن الصعب عشرة أشهر حتى نجاه الله تعالى في مارس سنة ١٩٤٦.

وفي سنة ١٩٤٨ شارك الإبراهيمي في تأسيس "جمعية إعانة فلسطين" وكان فيها ثلة من العلماء والكبراء، وعملت الجمعية أعمالاً جليلة، وبعثت مائة من المجاهدين إلى فلسطين، وجمعت تسعة ملايين فرنك قديم.

وزار البشير باريس سنة ١٩٣٦ مع وفد المؤتمر الإسلامي لعرض مطالب الجزائريين على حكومة فرنسا، وزارها عدة مرات بعد ذلك منها سنة ١٩٥٢ حين عقدت منظمة الأمم المتحدة اجتماعها في باريس واجتمع بوفود الدول العربية والإسلامية، وأقام على شرفهم حفل عشاء شرح فيه المطالب الجزائرية فأعجبت الوفود بما قاله وعرضوا عليه أن يستضيفوه في بلادهم ليشرح قضية بلاده للشعوب، فلما عادل إلى الجزائر وعرض الأمر على الجمعية رأى أعضاؤها أن يكون الإبراهيمي هو اللسان الناطق بشؤونهم ومطالبهم للشعوب العربية والإسلامية، فطاف الإبراهيمي بكثير من الدول العربية والإسلامية ثم استقر في مصر فاندلعت ثورة سنة ١٣٧٤/١٩٥٤ الجزائرية وهو في أرض الكنانة فجهد في شرح القضية الجزائرية بكتابة المقالات في الصحف، وعقد المؤتمرات، والحديث في إذاعة صوت العرب وجمع التبرعات.

وإقامة البشير في القاهرة في سنوات الثورة الجزائرية كانت لها مزايا ذكرتها آنفاً لكن كان يَعْتَوِرها النقص من جهتين اثنتين: أولاهما أن البشير كان بعيد عن جمعية العلماء

الجزائريين وعن العناية بها العناية اللازمة لدفعها قُدُماً وترسيخ وجودها في الجزائر، ولإيجاد المرجعية لها بين صفوف النخب الجزائرية وعامة الشعب، وخاصة أن الجمعية لم تستطع الاستمرار أمام الهجمة الفرنسية عليها فأغلقت سنة ١٩٥٦ أي بعد استقرار البشير في القاهرة بقرابة ثلاث سنوات، أما الأمر الآخر من النقص الذي دخل على إقامة البشير في القاهرة هو أنه كان رمزاً للعلماء الجزائريين، وكان وجوده إلى جانب زعماء الثورة أدعى إلى الحفاظ على إسلاميتها وإبعادها عن التيارات الماركسية والاشتراكية التي سقطت فيها الثورة في أوَجها من بعض قادتها، والتي سقطت فيها البلد بعد نجاح الثورة على يد ابن بلا وبومدين من بعده، فغياب الإبراهيمي عن مجريات الثورة لمدة ثمان سنوات أدى إلى قطيعة بين العلماء وأكثر رموز الثورة، وسمح للمذاهب الضالة بغزو الثورة من جوانب كثيرة، هذا هو رأيي الشخصي الذي أراه، وليس مثل الخسارة التي أودت بالثورة خسارة، وكان يمكن للجزائر لو ظلت وفية لمبادئ ابن باديس والإبراهيمي وأضرابهما، ولو بقيت الثورة على نصاعة التخطط لها وجلال جذورها الإسلامية لتغير

وجه الجزائر وربما تغير التاريخ في البلاد العربية لكن هكذا قدر.

وقد كان البشير ذا مواهب متعددة، فمن ذلك أنه شاعر، ومن أعظم ما قرضه ملحمته الضخمة التي قال عنها:

"ولكن أعظم ما دونت ملحمة رَجَزية نظمتها في السنين التي كنت فيها مبعداً في الصحراء الوهرانية، وهي تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت!! من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه، وقد تضمنت من فنون المواضيع: تاريخ الإسلام، ووصفاً لكثير من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائري بجميع فِرَقه ونِحَله، ولأفانين من الهزل للمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدة، والإنحاء على الابتداع في الدين، وتصويراً لأولياء الشيطان، ومحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشيطان، ووصفاً للاستعمار ومكائده ودسائسه وحِيَله وتحذيراته للشعوب للقضاء على مقوماتها" وهذا دال على مبلغ علمه - رحمه الله تعالى- ولا أدري أين ذهبت تلك الملحمة.

وللشيخ كتب عديدة منها قصة كاهنة الأوراس، وحكمة مشروعية الزكاة في الإسلام، وشعب الإيمان،

ومخارج الحروف، وفتاوى، والإطراد والشذوذ في العربية، وكتاب "عيون البصائر" الذي يضم المقالات التي كان يفتتح بها مجلة البصائر التي يرأس تحريرها، لكن للأسف كل تلك الكتب لا يُدرى أين هي الآن، وما بقي منها هو مجموعة مقالاته في أربعة أجزاء.

من أقواله الجليلة ما يصف به الاستخراب الفرنسي قائلاً:

"جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقومات راسخة الأصول، فاهية الفروع على نسبة من زمنها، فتعهد في الظاهر باحترامها والمحافظة عليها، وقطع قادته وأئمته العهود على أنفسهم وعلى دولتهم ليكونن الحامين للموجود المشهود من عقائد ومعابد وعوائد ولكنهم عملوا في الباطن على محوها بالتدريس ... والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب

الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية ...".

وقال عن بعض الصوفية المنحرفين في الجزائر:

"وما ضَرّ هؤلاء الأشياخ وقد دانت لهم الأمة، وألقت إليهم بد الطاعة، ومكنتهم من أغراضها وأموالها أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثوها أولاداً لهم فاسقين، يبددونها في الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور؟

ما ضرهم أن تهزل الأمة إذا سمنوا؟

ما ضرهم إذا فسدت أخلاقها ما دام خُلُق البذل والطاعة صحيحاً؟

ما ضرهم أن تفترق كلمة الأمة ما دامت مجمعة على تعظيمهم واحترامهم، ومغضية عن شرورهم وإجرامهم؟"

وقال عن فرنسا واستخرابها:

"إن الإستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو - منذ احتل الجزائر- عامل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة

العربية لأنها لسان الإسلام، على محو العروبة لأنها دعامة الإسلام...".

وقال عن العيد:

"الحقيقة هي أنني كلما أظلني عيد من أعيادنا الدينية أو القومية أظلتني معه سحابة من الحزن لحال قومي وما هم عليه من التخاذل والانحلال، والبعد عن الصالحات والقرب من الموبقات ... وكيف استخفهم علماؤهم وزعماؤهم وكبراؤهم وملوكهم فأطاعوهم، أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لا صباح لها ... وأفكر في علة هذا البلاء النازل بهم، وفي هذا التفرق المبيد لهم فأجدها آتية من كبرائهم وملوكهم من المعوقين منهم ... وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشوراً بلا لباب وألفاظاً بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فازهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخاصة فموهوها بالتضيليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنِحَل والشِيَع، وقد نسو حاضرهم افتتاناً بماضيهم، ولم يحفلوا بمستقبلهم لأنه - زعموا- غيب، والغيب لله، وصدق

الله وكذبوا، فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل".

مناصبه:

عُرضت عليه مشيخة الجامع الأزهر لما كان في القاهرة لكنه رفضها لما يعلم من عوائق الوظيفة لعلمه الذي نذر نفسه له.

وعين عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ودمشق.

هذا مع ما كان عليه من رئاسة لجمعية العلماء الجزائريين التي عطلها المستخرب الفرنسي سنة ١٣٧٦/١٩٥٦ إبان الثورة.

وعرضت عليه فرنسا أن توليه منصب شيخ الإسلام في الجزائر استمالة له فرفض بإباء وشمم.

من أقوال الكبراء فيه:

قال عنه تلميذه د.جميل صليبا:

"ولعلنا لم نحب هذه اللغة العربية إلا بتأثير حبنا للشيخ أولاً، فقد أحببناه حباً عميقاً وانتقل هذا الحب منه إلى مادته، ولا غَرْوا فقد كان - رحمه الله- من أعظم الناس في

أعيننا، وكان الذي حببه إلى نفوسنا تواضعه ولطفه، ووقاره، وشجاعته، وعفته، وشعوره بكرامته، وحرصه على القيام بواجباته...".

قال عنه بعض معاصريه:

"وإليه انتهت رئاسة العربية في الجزائر".

وقال عنه العالم محمد بهجة البيطار:

"دائرة معارف جمعت من كل شيء بطرف".

وقال عنه رفيقه ابن باديس:

"عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ الإبراهيمي أن يضل في دين، أو يَخْزَى في دنيا، أو يذل لاستعمار".

من أعماله الدالة على نبوغه:

إضافة لما سبق كان هناك في حياة الشيخ الإبراهيمي أحداث تدل على نبوغه منها أن جمعية العلماء الجزائريين لما أسست كُلف الإبراهيمي في أول جلسة لها أن يضع لائحة لها فكتبها في سبع وأربعين ومائة مادة نوقشت في ثمان جلسات خلال أربعة أيام، ثم صودق على اللائحة بالإجماع دون زيادة أو

نقصان!! مما دعا الشيخ ابن باديس أن يقول له: وَرِي بك زناد هذه الجمعية.

وفاته:

عاد البشير الإبراهيمي إلى الجزائر سنة ١٩٦٢/١٣٨٢ عقب نجاح الثورة، وأَمّ الناس في جامع كتشاوة الذي حوله الفرنسيون إلى كاتدرائية لما دخلوا سنة ١٨٣٠، فأعيد إلى الإسلام والمسلمين، وفرح الناس برجوعه، لكن رياح الجزائر كانت شرقية آنذاك وتمركست الجزائر - من الماركسية- فلم تكن لترحب بمثل البشير الإبراهيمي الذي لزم بيته في إقامة جبرية إلى أن لقي وجه الله تعالى سنة ١٩٦٥/١٣٨٥ مقهوراً محصوراً وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- المفسر العامل

أبو الثناء الآلوسي

١٢١٧ – ١٢٧٠

١٨٠٣ – ١٨٥٤

قد كانت الدول العربية والإسلامية منذ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي تغط في سُبات عميق، وما زالت كذلك حتى قام رجال عظماء حركوا الراكد من أمرها، وأيقظوا النائم من أهلها، وبعثوا فيها نهضة سياسية وعلمية وثقافية هائلة، وكان لهم - بعد الله تعالى- الفضل الأكبر في التوطئة لهذه الصحوة المباركة التي تعيشها البلاد العربية والإسلامية منذ ثلث قرن تقريباً، وكان من هؤلاء العظماء شهاب الدين أبو الثناء الآلوسي العراقي، وآلوس - وتقصر همزتها وتمد- قرية على أعالي الفرات، في محافظة الأنبار، غرب العراق.

ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م في الكَرْخ -محلة ببغداد- من أسرة حسينية النسب، وأبوه صالح عالم يسمى بهاء الدين عبدالله، وقد توفي بالطاعون سنة ١٢٤٦هـ، وخلف ثلاثة أبناء منهم أبو الثناء محمود الذي نشأ على ما ينشأ عليه طلاب العلم في زمانه، فقرأ القرآن، وحفظ الآجرومية في النحو، وألفيه ابن مالك، وحفظ منظومة الرحبية في علم

الفرائض، وقرأ على أبيه الفقه، وأتم كل ذلك وهو دون العاشرة !!

ثم أخذ على جملة من علماء بلده ومنهم الشيخ علاء الدين الموصلي فقد لازمه أربعة عشر عاماً، حتى أجازه في التدريس، درّس بعد ذلك في أماكن عديدة، وخطب ووعظ، وولي أوقاف مدرسة مرجان وهي رتبة مشروطة لأعلم أهل البلد، ونُصب مفتياً للحنفية، وتلك المناصب والوظائف جلبت له حسد الحاسدين، ووشاية الواشين، وقد نال (نيشان) السلطان لما أجاب على أسئلة صعبة وردت من إيران، وشرع يؤلف تفسيره الكبير "روح المعاني" وهو مطبوع اليوم ومتداول، ثم أثمر الكيد والحسد عن عزله عن منصب الإفتاء، ورُفعت يده عن الأوقاف، وتغير حاله وافتقر فلم يجد بداً من الذهاب إلى إسطنبول لعرض أمره على السلطنة هنالك، وكان قد أتم التفسير فأخذه معه وسيلة إلى ما هنالك، فالتقى في اسطنبول شيخ الإسلام عارف حكمت صاحب المكتبة المشهورة في المدينة النبوية المنورة، فأعرض عنه شيخ الإسلام لما سبق من وشاية الواشين وحسد الحاسدين ثم صلح ما بينهما، ثم عرض

أمره على الصدر الأعظم "رئيس الوزراء" مصطفى رشيد باشا فتوصل إلى أن يُنعم عليه السلطان عبدالمجيد بخمسة وعشرين ألف قرش اسطنبولي وله مثلها كل عام، وأعطاه شيخ الإسلام خمسين ألف قرش، وعاد إلى وطنه بعد أن غاب عنه قرابة سنتين، وكتب رحلت هذه في كتاب "غرائب الاغتراب"، وفي كتابين آخرين سجل فيهما رحلة الذهاب والإياب.

كتبه :

كان له كتب كثيرة جليلة منها:

"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، وهو كتاب ضخم كبير، سار فيه على طريقة القدماء، لكن مزج تفسيره بإشارات الصوفية وببعض الأحاديث الضعيفة، وبعض الإسرائيليات لكن تفسيره هذا في الجملة مقبول وقد أورد فيه كثيراً من النقولات، ورجح بعضها على بعض، وكان في مدة اشتغاله بهذا التفسير عالي الهمة جداً ، فقد ذكر طلابه أنه كان يسهر الليل يقرأ ويكتب ، فإذا أشرقت الشمس دفع إلى طلابه ما كتبه في الليل ليبيضوه في النهار ، وهكذا إلى أن فرغ منه ، ولا بد لأبي الثناء من هذه الهمة ليفرغ

من تفسيره الكبير الذي تفنى الأعمار قبل تمامه، هذا على ما هو فيه من الانشغال بالمناصب والتدريس، لذلك كله بقي في تأليف الكتاب خمسة عشر عاماً.

وقد طبعه ابنه خير الدين نعمان في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٠١.

وله كتاب "الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية" وفيه إجابة عن ثلاثين مسألة وردت من إيران في التفسير واللغة والفقه والعقائد والمنطق وعلم الفلك وغير ذلك.

وله كتاب "الأجوبة العراقية من الأسئلة اللأهورية" ذب فيه عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ، وكافأه السلطان عليه بمكافأة عظيمة ، وطبع في بغداد سنة ١٣٠١.

وله كتاب "غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب" وقد ذكر في الكتاب ما جرى عليه لما ذهب إلى اسطنبول ، وقد طبع في بغداد سنة ١٣١٧، وله كتابان آخران ألفهما عن رحلته وهما مطبوعان.

وله كتاب "سُفرة الزاد لسَفرة الجهاد" دعا فيه المسلمين إلى اليقظة في كل الجوانب وأعلن أن الجهاد فريضة لا بد منها أمام هجمات أعداء الإسلام التي تتابعت على العالم الإسلامي آنذاك.

وله كتب كثيرة غير هذه ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وجملتها اثنان وعشرون كتاباً.

ريادته:

كان أبو الثناء الآلوسي رائداً في بلاده العراق وأحد أعمدته، فقد كان مفسراً لا مثيل له في عصره، ومؤرخاً، وفقيهاً، وقد نُصب مفتياً للحنفية وهو في الثلاثين من عمره، وهذا دليل نبوغ وريادة، وبقي في منصب الإفتاء خمسة عشر عاماً ثم عزل، على أنه لم يكن حنفياً فأسرته شافعية لكن منصب المفتي إنما هو للأحناف فقط على ما جرت عليه العادة في الدولة العثمانية، فأقبل أبو الثناء على دراسة المذهب الحنفي حتى أتقنه وبرع فيه.

وكان أبو الثناء على مذهب السلف في سقط: العقيدة، وكان كثيراً ما يردد : "يا بني: عليكم في باب العقائد بعقيدة

السلف فإنها أسلم، بل من أنصف يعلم أنها أيضاً أعلم وأحكم، لأنها أبعد عن القول على الله بما لا يعلم".

وقد كان أبو الثناء مناصراً لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، مثنياً عليها.

وقد ذكر في تفسيره آراء لشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد كان هذا في ذلك الوقت أمراً عظيماً محتاجاً إلى شجاعة وقوة.

ولم يكن أبو الثناء منقطعاً عن الناس بل كان واسطة عقدهم، وإليه - بعد الله تعالى- مفزعهم، وهو مهوى أفئدتهم، فلذلك أقبلوا عليه إقبالاً عظيماً، وتعلقوا به، وصار له تلامذة كبار، وصح فيه قول المؤرخ العراقي عباس العزّاوي: إن العصر الحديث في العراق يجب أن يسمى عصر الآلوسي.

ها وقد قال الأستاذ العزاوي –أيضاً- في الآلوسي قولاً يلخص ما كان عليه من صلة بالناس:

"إن علماءنا ساروا على الجادة العلمية من تدريس كتب بعينها وما فيها من تعقيد وسقامة، ولم يخرجوا عنها فدام جمودهم، كما أنهم قبعوا في مدراسهم وتركوا تهذيب الأمة وأهملوا العلاقة بها فدخلت عقائد زائفة وانتشرت في الخفاء،

ثم ظهرت الدعوة لها وأدت إلى خطر، وشُغْل المدرسين الشاغل التدريس دون التفات إلى تهذيب الشعب، ومن هنا نجمت الأخطار، والأستاذ بوعظه أعاد الاتصال بالشعب فأحبه".

وكان لأبي الثناء رأي في ولاة عصره وطرائق إدارتهم، وقد ذمهم في مواضع عديدة لأسباب مختلفة ، وطعن في طريقة اختيار مجلس الشورى ورأى من الولاة بسبب ذلك وغيره ما ساءه من عزل له عن المناصب، وسُجن مراراً، وخُوف وكاد يقتل لكن الله تعالى نجاه، واتهمه بعض الولاة بإثارة الفتن والقلاقل، وتحريض الشعب على المظاهرات، واتهمه ولاة آخرون بالخروج على الدولة العثمانية، وهكذا انتقل من تهمة لأخرى ، ووجهت إليه السهام من كل جانب، فاضطر للسفر إلى اسطنبول لكنه لم يعد منها بما هو مأمول، فلبث في بيته بضع سنين إلى أن وافاه الأجل المحتوم.

صفاته:

كان أبو الثناء صاحب همة عالية أنبأت عنها كثرة تصانيفه على أن عمره قصير نسبياً، وكان له صبر عجيب على شدائد الحياة، فحين نزع من الإفتاء والأوقاف اشتد عليه الفقر

حتى قال عن نفسه : (إني بعت ثياب الشتاء لشراء قرطاس، وطالعت على نور القمر حيث أَعْوَزَني بنراس -أي مصباح- وكم قاسيت من شدائد تذيب الجلاميد -أي الصخور الصلاب- وعضه الفقر حتى باع كتبه وأثاثه وحاجاته لينفق على أهله حتى لم يبق في بيته شيء يباع، وبقي على ذلك ثلاث سنوات حتى كاد يأكل الحصير على مداد التفسير، كما قال.

ومن همته ارتحاله إلى أماكن عديدة -على صعوبة في الانتقال آنذاك- فقد ارتحل إلى الحجاز والشام واسطنبول ومصر.

توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٧٠ ولم يجز الخمسين إلا بقليل، لكنه ترك ثروتين مهمتين، ثروة الكتب وعلى رأسها التفسير، وثروة من التلاميذ، فالنهضة العراقية الحديثة مدينة له، وتلاميذه -تقريباً- هم الذين تولوا من بعده قيادة المجتمع العراقي علمياً وأدبياً وتاريخاً، فرحمه الله رحمة واسعة.

٨- المجدد السلفي

محمود شكري الآلوسي

١٢٧٣ – ١٣٤٢

١٨٥٦ – ١٩٢٤

الآلوسيون أسرة عظيمة القدر، جليلة الفضل، وعمدتها رجلان: شهاب الدين أبو الثناء الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠، وقد مرت ترجمته، وحفيده أبو المعالي محمود شكري الألوسي وهو الذي أترجم له في هذه الصفحات، واسمه مركب هكذا: محمود شكري، وقد سماه أبوه باسم جده أبي الثناء الآلوسي المشهور رجاءَ أن يكون الحفيد مثل الجد، وأسرته حسينية النسب، كثيرة العلماء، وبلدته ألوس بلدة صغيرة على أعالي الفرات في محافظة الأنبار غرب العراق.

ولد في بغداد، ونشأ كما ينشأ غيره من طلاب العلم في ذلك الزمان لكنه فاق الأقران بقوة حفظه وجودة فهمه وحسن خلقه، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، وحفظ كتباً ومنظومات، وقرأ على مشايخ كثيرين، منهم والده بهاء الدين عبدالله، فلما مات والده كفله عمه خير الدين نعمان الآلوسي فكان له مكان أبيه، ثم لما اشتد عوده، وعظمت علومه أخذ في التدريس في عدة أماكن، ثم صار رئيس المدرسين في مدرسة مرجان وذلك قبل موته بثلاث سنين سنة ١٣٤٠،

وكانت أشهر مدرسة في بغداد، والتدريس فيها يوكل لأعلم أهل البلد.

وقد كانت المدارس الحديثة في بغداد تُدرس بالتركية في الغالب سواء كانت مدارس مدنيّة أو عسكرية، وكان الناس يقبلون عليها لأنها سلم للوظائف، أما مدارس الثقافة العربية فقد كانت على قسمين: قسم يطغى عليه الجمود والتقليد، وقسم آخر نشط في الدعوة إلى الاجتهاد والخلوص من البدع، والعناية باللغة والأدب، وإلى هذا القسم الأخير انتسب الألوسي رحمه الله تعالى في طوره الآخر، فقد نشأ في الطور الأول على ما كان عليه الناس في زمانه من التعلق بالتصوف الغالي، وما يتبع ذلك من تعلق بالضرائح والمشاهد، ومن خالف ذلك أو أنكره يُدعى بالوهابي ويؤذى.

وقد نشأ الألوسي على حب التصوف والتقليد تبعاً لوالده وأكثر مشايخ عصره، لكن عمه العلامة نعمان كفله، وكان سلفياً، فغرس في نفسه حب البحث وكراهية البدع، لكن الفتى محموداً كان متمسكاً بما كان عليه أبوه، فبحث عن مشايخ آخرين غير عمه.

فلما بلغ الثلاثين من عمره اطلع على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في خزانة كتب عمه وأستاذه خير الدين نعمان، فتأثر بما قرأ، ورأى أن يترك التقليد وطريقة الصوفية لكنه لم يجهر بذلك خوفاً من الأذى الذي كان سيلحقه.

لكنه بعد اشتداد عوده، واجتماع أنصاره عليه، جهر بما كان يراه حقاً وبدأ يدعو إلى ما اقتنع به فبعد قرابة ثلاثة سنوات من المداراة جهر بما يراه حقاً في كتابه "فتح المنان" الذي فرغ منه أواخر سنة ١٣٠٦ وطبع بالهند سنة ١٣٠٩.

لكن العلماء عادوه ونبزوه بلقب (الوهّابي)، وحرضوا عليه الوالي عبدالوهاب باشا وإلي بغداد فكتب إلى السلطان عبدالحميد يشكوه ويدعي أنه خارج على السلطان وأنه وهابي إلى آخر تلك الشكاوى المعروفة التي كانت ترفع ضد رجال الإصلاح فأمر السلطان بنفيه هو وابن عمه ثابت بن خير الدين نعمان الآلوسي والتاجر حمد العساف النجدي، فلما مروا بالموصل مخفورين ضج وجهاء الموصل ورفضوا أن يبارح الركب مدينتهم، وأرسلوا إلى السلطان عبدالحميد ما يقنعه ببراءة

الثلاثة، فوافق أن يعيدهم إلى بغداد بعد أن مكثوا شهرين في الموصل، وكان ذلك سنة ١٣٢٣هـ / ١٨٩٥م.

ثم أقبل الإنكليز إلى العراق محتلين ، ودخلوا البصرة ، حينذاك أرسلت الدولة العثمانية وفداً إلى الملك عبدالعزيز يستنجده ، وكان فيه أبو المعالي محمود — المترجم له ها هنا — وثلاثة آخرون ، فخفوا سراعاً إلى نجد سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٥ لكن الملك -الذي أحسن مقابلته ووفادته- اعتذر عن عدم استطاعته النصرة وأنه يرى أن العثمانيين ضعاف والإنجليز أقوياء، وأنه إن أعلن الحرب على الانجليز فلن يستفيد العثمانيون وفي الوقت نفسه سيتضرر هو، فاقتنع الألوسي بوجهة نظر الملك.

واجتمع الألوسيّ بعلماء نجد واطلع على بعض خزائن الكتب، ثم خرج من نجد إلى الشام ثم بغداد.

كانت الأحوال السياسية في عهده مضطربة غاية الاضطراب، والدولة العثمانية قد ضعفت إلى الحد الذي صار سقوطها متوقعاً بين الفَيْنة والأخرى، وفعلاً قد سقطت في سنة موت الألوسي رحمه الله تعالى، هذا وقد عاصر سبعة

سلاطين، وتولى على العراق ثلاثون والياً في الستين سنة التي عاشها الألوسي تحت حكم الدولة العثمانية!! فقد كان العثمانيون يكثرون من تغيير الولاة حتى لا يطمعوا في الاستقلال بما تحت أيديهم، وقد قال جمال الدين الألوسي عن هؤلاء الولاء واصفاً حالهم:

"فالولاة الذين كانوا يُرسلون إلى العراق يغلب على أكثرهم الجهل، ولا غاية لهم إلا التسلط وجباية الأموال وإرضاء الرؤساء والأعيان، وأكثرهم لا يقرأون ولا يكتبون، فكانوا بحكم تخلفهم الثقافي أن يتخلف العراق ثقافياً وفكرياً وأدبياً، بل كان عصرهم نكبة على العلم وأهله".

سقطت بغداد سنة ١٣٣٥/ ١٩١٧ بيد الإنجليز الذين عرضوا عليه بواسطة المعتمد البريطاني السير بيرسي كوكس قضاء بغداد فأبى بعد الإلحاح ، ثم عرض عليه الإفتاء فرفضه أيضاً، لكنه قبل عضوية مجلس المعارف وعضوية المجمع العلمي العربي بدمشق لما فيها من خدمة العلم.

وكان يتحسر على زوال الدولة العثمانية وتفرق شمل المسلمين، وكان يكره الانجليز.

ولما قبل أخوه الأكبر منصب وزارة العدل في عهد الانتداب قاطعه، حتى أنه مات وهو مقاطع له غضباً عليه.

همته:

كان أبو المعالي صاحب همة عالية تظهر في جوانب حياته كلها ، ففي صغره انقطع إلى الحفظ والقراءة على المشايخ ، ثم كان صاحب همة في التدريس فقد كان يدرس عامة نهاره في مدرستين، ويحضر الدرس ولو في يوم مطير، وقد ذكر أحد طلابه أنه انقطع عن الدرس في يوم شديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل ظنا منه أن الشيخ لن يأتي، فلما حضر في اليوم التالي أنشده الشيخ شطر بيت: ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد !!

وتظهر همته في القراءة، فقد قرأ لسان العرب -وهو عشرون مجلداً- قرأه ثلاث مرات، وحدّث عن نفسه أنه كان ببغداد ثماني خزائن كتب في مساجدها حافلة بنوادر المخطوطات، فقرأ كثيراً منها، ونسخ الكثير، ثم تجاوز ذلك إلى خزائن كتب دمشق والقاهرة والمدينة النبوية المنورة ونجد واسطنبول، فانظروا إلى هذه الهمة في القراءة، واليوم نرجو من

الشباب الأقوياء أن يقرأوا كتيبات معدودات وهم عن ذلك نافرون!!

وكان له راتب ضئيل فكان ينفق منه كثيراً من أجل أن يُكتب له الكتب من الخزائن على أيدي الناسخين.

وهو صاحب همة في الكتابة أيضاً، فقد كتب رداً على الشيخ يوسف النهاني في سبعين كراساً في شهر واحد وهو شهر رمضان.

ومن الدلائل على همته أنه كان يقضي النهار كله -إلا قليلاً- في التدريس، وكان يدرس بطريقة حاصلها الوصول إلى لب العلوم وثمرتها، ويخالف علماء بلاده في طرائق تدريسهم التقليدية التي تعتمد على الحفظ والترديد للأقوال.

ريادته ومؤلفاته:

كان للأستاذ قصب السبق في العراق في العصر الحديث بالمناداة بتطهير المجتمع من البدع، وكف العامة عن العكوف على القبور وسؤال المقبور، والدعاء إلى التوحيد الخالص، والرد على دعاة البدع والشطح وقد ناصر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ونشر كتبهما ودافع عنهما طويلاً، وقد ألف

في نصرة العقيدة السلفية ومحاربة المبتدعة عدة كتب، منها: "غاية الأماني في الرد على النبهاني" وهو كتاب كبير من مجلدين أثنى عليه الأستاذ رشيد رضا ثناء بالغاً، وألف في هذا الباب أيضاً "فصل الخطاب" في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبدالوهاب، وله غير ذلك، وقد قال تلميذه الأستاذ محمد بهجة الأثري في ذلك:

"جاهد السيد البدع والوثنيات، ودعا إلى التوحيد الذي هو أول ما كانت تدعو إليه الرسل، وبين ضرر تقليد الآباء والسير على آثارهم الغامضة، غير مدخر في جهاده ودعوته وسعاً حتى كبح جماح الوثنيين، وخفف من غُلَواء -أي شدة- القبوريين أو كاد، فكان له من التأثير المحمود في قمع الضلال مالا سبيل لأحد إلى إنكاره، وهذه آثار جهاده بين الأيدي".

أما الشيعة فقد ألف في نقض عقائدهم عدة كتب منها: "صب العذاب على من سب الأصحاب"، "والسيوف المشرقة مختصر الصواق المحرقة"، و"المنحة الإلهية تخليص ترجمة

التحفة الاثني عشرية"، وقد أهدى كتابه الأخير هذا إلى السلطان عبدالحميد رحمهما الله تعالى.

وله في اللغة العربية والآداب كتب كثيرة.

وكان له قوة وجلد على التأليف حتى أنه ألف كتابه "غاية الأماني في الرد على النبهاني" في أربعين يوماً فقط، وهو كتاب ضخم، وقد قال في ذلك الأستاذ محمد بهجة الأثري: "وقد أجال قلمه في نواحٍ شتى من المعرفة، وألف في علوم وفنون مختلفة ... وقد أدرك أهل عصره قوته العجيبة فيه" أي في التأليف.

وقد بلغت عدة كتبه قرابة ستين كتاباً ورسالة، منها ما يبلغ مجلدين وثلاثة.

وقد آلت مكتبته إلى مكتبة المتحف العراقي: مؤسسة الآثار العامة ببغداد، ضمن مخطوطات الخزانة الألوسية التي اقتنتها مؤسسة الآثار من أسرة السيد عبدالرزاق محمد ثابت الألوسي.

قصة كتابه "بلوغ الأَرَب":

أما مؤلفاته التاريخية فأشهرها "بلوغ الأرب في أحوال العرب" في ثلاثة مجلدات ولهذا الكتاب قصة لطيفة، فقد أرادت لجنة اللغات الشرقية -المنعقدة في استوكهولم بدعوة من أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج- تأليف كتاب يستوفي أحوال العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وذكر قبائلهم وعوايدهم ومشاهير رجالهم، ثم كيف استطاعوا فتح الممالك، ونشر الإسلام، مع التعريج على عرب اليوم في بواديهم، على أن يكون الكتاب قائماً على أصول البحث العلمي مستوفياً لها، وطلبت من العلماء العارفين بأحوال العرب أن يؤلفوا هذا الكتاب، ثم تعقد مسابقة لاختيار أفضل الكتب وأحسنها، فسارع الآلوسي فيمن سارع لقبول الطلب وكتابة البحث، فلما انتهت المدة، وجُمعت البحوث من مصر والشام والعراق وأوربا ونظرت فيها اللجنة اختارت كتاب "بلوغ الأرب في أحوال العرب" للآلوسي لما رأته أجمع المؤلفات التي وردت إليها مادة، وأغزها فائدة، وأقربها مراعاة لشروطها ، ففاز الكتاب بالجائزة والوسام الذهبي، وبعث إليه الكونت كرلودي

لندبرج قنصل السويد والنرويج في مصر برسالتين أثنى عليه فيهما ووعده بطبع كتابه تخليداً له، وكان ذلك سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٢م.

وله كتاب "المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر" وهو مطبوع متداول.

وله كتاب تاريخ نجد، وتاريخ بغداد وغير ذلك من الكتب والمؤلفات التي زادت على الخمسين.

وللأستاذ الألوسي مقالات نشرت في مجلات عصره كالمقتبس والمنار، ومجلة المجمع العلمي العربي، وغيرها، وفتاوى كثيرة، لكنها لم تجمع إلى الآن فيما أعلم.

أخلاقه:

كان -رحمه الله تعالى- مستجمعاً للفضائل، صريحاً لا يعرف المحاباة، يقول للمصيب أصبت وللمخطئ أخطأت، وللصادق صدقت وللكاذب كذبت، وكان كثير الحياء، يميل إلى الفقراء، متواضعاً، بعيداً عن التأنُّق في الملبس والمطعم، شديد الانفعال والتأثر، سريع الغضب سريع الرضى، جريئاً، نشيطاً، ميالاً إلى الجد، جَلْداً على البحث والمطالعة

والتنقيب والنسخ، صاحب همة عالية، لم يتزوج، فكان خفيفاً، قليل التعلق بالدنيا، وقد استجمع بهذا جملة من الفضائل المساعدة على الإمامة والريادة.

وكان يستحم بالماء البارد صبيحة كل يوم حتى في شدة البرد!! وهذا دال على قوة عزيمته وشدة تحمله -رحمه الله تعالى- فبغداد في الشتاء باردة.

مناصبه:

كان في الشيخ حب للعزلة وميل للانفراد عن الناس، لذلك لم يجب أكثر المطالب لتوليه المناصب، إلا أنه في الحرب العالمية الأولى طلب منه الوالي جمال باشا أن يكون عضواً في مجلس الإدارة في بغداد وشرح له حاجة الدولة العثمانية إلى المعاضدة والمناصرة فأجاب إلى هذا وسار بالناس سيرة حسنة.

وكان قائماً على القسم العربي من جريدة الزوراء التركية، وهي أول جريدة أنشئت في بغداد، أنشأها مدحت باشا سنة ١٢٨٦هـ، وبقيت إلى دخول الإنكليز سنة ٩١٧/١٣٣٥، فكتب فيها مقالات علمية وأدبية، وعرض بعض الأسئلة على علماء بغداد.

وبقي إماماً وخطيباً في جامع الأعظمية مدة أربعين سنة، وكانت له مجالس في مساجد بغداد للوعظ والإرشاد.

وكان صاحب خط جميل، وهو معدود من أئمة الخطاطين العرب في العراق، وله تلاميذ تخرجوا على يديه في الخط، وقد أخذ إجازة في الخط من والده، وله آثار بخطه كثيرة لا زالت في المكتبة القادرية لم تنشر بعد.

تلاميذه:

كان لمنهجه وطريقة تدريسه أثر كبير في عدد من طلابه، ونبع منهم جماعة، منهم العلامة محمد بهجة الأثري، والشاعر معروف الرصافي -إلا أنه انحرف بعد ذلك- وعبدالعزيز الرشيد من أهل الكويت، وعباس العزاوي مؤرخ العراق، ومحمد بن مانع النجدي، والأب إنستاسي الكرملي النصراني العراقي، العضو في المجمع العلمي الدمشقي، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجمع الشرقيات الألماني.

وقد أخذ عنه بعض المستشرقين مثل مرجليوث، وهو خبيث ذوخبيئة سيئة.

وفاته:

توفي -رحمه الله تعالى- سنة ١٣٤٢/١٩٢٣ بعد أن عانى طويلاً من مرض انسداد المثانة، ودفن في بغداد في مقبرة الجنيد البغدادي، وصلى عليه عشرات الآلاف من الناس، وصلى عليه أهل نجد صلاة الغائب بأمر الملك عبدالعزيز، ورثته الملوك والأمراء والعلماء من شتى أقطار العالم الإسلامي.

من أقوال العلماء فيه:

قال فيه العلامة رشيد رضا:

"ناصر السنة، وقامع البدعة، علامة المنقول، ودَرّاكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبراس الأمة العربية ... ولم نسمع للعلوم العربية والدينية على مذهب أهل السنة صوتاً إلا من هذا الرجل لهذا لقبناه في مكتوباتنا له بعالم العراق".

وقال فيه الأستاذ الكبير أحمد تيمور باشا:

قضى الله -ولا راد لقضائه- أن يُفجع العلم بإمامه ونبراسه، وأن يحُرم المستفيدون من سندهم في حل معضلاته، ويعلم الله ما كان لهذه المصيبة من الوقع في نفسي، ولكن ما

الحيلة وقد نفذ القضاء وطُوي الكتاب ، وإنا لله وإنا إليه راجعون".

وقال فيه تلميذه محمد بهجة الأثري رحمهما الله تعالى:

"وصفوة القول أنه كان من أعاظم رجال النهضة العلمية في العالمين الإسلامي والعربي، لا ينازع في ذلك منازع، وآثاره أعدل شاهد على ما نقول:

تلك آثاره تدل عليه   فانظروا بعده إلى الآثار

٩- الإمام المجاهد الصومالي

محمد بن عبدالله حسن

١٢٧٣ – ١٣٣٩

١٨٥٦ – ١٩٢٠

إن الأخبار التاريخية التي وردتنا عن منطقة القرن الأفريقي عامة والصومال خاصة لهي أخبار قليلة لا تتناسب مع أهمية المنطقة وإشرافها على جزيرة العرب من جهة والدول الإفريقية المهمة من جهة أخرى، وربما كان لقلة المؤرخين في تلك المنطقة أثر في ذلك، ولعل مستقبل الأيام تخرج لنا بعض المخطوطات المهمة التي تتحدث عن تاريخ المنطقة باستفاضة.

والشخصية التي أتحدث عنها في هذه الحلقة هي شخصية مجاهد جليل، وقف أمام أطماع الصليبيين في الصومال التي هي -في تقديري- أهم بلاد القرن الإفريقي لموقعها الفريد ولاتساع مساحتها، وبرز منها مجاهدون عظماء منهم الإمام أحمد بن إبراهيم الذي وقف ضد أطماع البرتغاليين والأحباش بقيادة الملكة هيلانة، وكان ذلك في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أورد أحداً من الشخصيات إلا إن كان من العصر الحديث لأوردته؛ فهو أحد العظماء المنسيين رحمه الله تعالى.

تنافس الأحباش والإيطاليون والبريطانيون والفرنسيون على تقسيم الصومال والتهامه تطبيقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥ التي فتحت الباب واسعاً أمام الأطماع الصليبية في كل إفريقيا، فكانت بريطانيا في بربرة وما حولها، وإيطاليا في مقديشو، وفرنسا في جيبوتي، والحبشة في هرر.

كان هذا الشيخ المجاهد محمد بن عبدالله حسن صوفياً على الطريقة الصالحية لكنه لم يكن مثل قَعَدة الصوفية ومثبطيهم بل إنه ضرب المثل في الجمع بين الجهاد والتربية الروحية البعيدة عن الغلو، وكان هذا نادراً في العصر الحديث؛ كما هو معلوم، ولم يتحقق إلا لآحاد منهم عمر المختار والإمام شامل، ومهدي السودان وقليل غيرهم.

ولد الإمام المجاهد محمد بن عبدالله حسن في سنة ١٢٧٣/١٨٦٤ في شمال الصومال بالقرب من بوهوتلي، من أسرة عربية الأصل هاجرت إلى الصومال منذ زمن طويل، وكان أبوه من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية، من قبيلة بهجري الصومالية وأمه من قبيلة الدولبهنتا الصومالية أيضاً، فانتقل إلى تلك المنطقة واستقر بها، واهتم بابنه فأرسله

إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، والعلوم الشرعية في الأوجادين، والتقى بالمشايخ وعلماء المنطقة، واشتغل بالصيد والفروسية والملاحة، ثم حصل على لقب الشيخ وهو في التاسعة عشرة من عمره المبارك - وهذا دليل على نبوغه المبكر- ودرّس في المساجد والمراكز الدينية في هرر ومقديشو ونيروبي وغيرها، ثم عاد إلى بلاده وهو في الخامسة والعشرين فتزوج وواصل إلقاء الدروس، ووفد عليه جماعات من الطلبة الذين كانوا نواة لجنده فيما بعد.

وكان الإمام شاعراً، وله شعر يتناقله الصوماليون اليوم لكنه لم يُكتب في حياته.

وحج البيت الحرام سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥ فوقف على أحوال المسلمين وأخبارهم فقد كانت مصر تموج بالاحتلال البريطاني، والسودان يثور بقيادة المهدي، فكانت رحلة الحج إعداداً نفسياً له لمواجهة الأطماع في الصومال، والتقى في الحجاز بالشيخ صالح السوداني صاحب الطريقة الصالحية وأخذ عنه، وكان أثناء إقامته بالحجاز يتسقط أخبار الصومال من الحجاج ويسمع ما صنع المحتل بأهل بلده.

وعزم مع مجموعة من خُلّص من كان معه من أصحابه على الجهاد.

ثم توجه إلى فلسطين وزار بيت المقدس.

وفي سنة ١٨٩٥/١٣١٣ قرر العودة لبلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبح لها اليد الطولى في موانئ القرن الافريقي مثل بربرة وزيلع، بعد انسحاب القوات المصرية التي كانت تحكم تلك البلاد، وذلك نتيجة مؤامرة حاكها المحتل البريطاني لمصر، وصارت بريطانيا تبني الكنائس وتمزق الصومال إلى مناطق نفوذ مختلفة.

وفي عدن حدثت له حادثة تنبئ عن نفسية الرجل، فقد طلب منه أحد البريطانيين مشاهدة المظلة التي في يده فأبى الإمام، فتبعه البريطاني وحاول أن يرى المظلة بالقوة فدفعه الإمام فسقط في البحر، فتعجب البريطانيون من جرأته على أحدهم، وهم يعدون أنفسهم سادة المنطقة، وكاد يسجن لولا أن الله أنقذه بوساطة الشرطة في عدن.

ثم توجه إلى بربرة -عاصمة الصومال الانجليزي آنذاك- التي لقي فيها عنتاً من رجال الجمارك الذي طلبوا منه رسوماً على أمتعته فقاله لهم: ومن الذي أعطاكم الإذن بالدخول إلى بلادنا؟

وأقام في بربرة مسجداً وأقبل على تعليم الناس وتربيتهم وتهذيبهم، وبدأ يحثهم على الجهاد ضد الأوربيين وكان يؤثر في سامعيه بما وهبه اللّه تعالى إياه من الفصاحة وقوة الحجة وحسن الإقناع بآيات من كتاب اللّه تعالى وأحاديث رسول اللّه e ، وبشخصيته الفذة ورجاحة عقله وسرعة بديهته، هذا علاوة على ما امتاز به من براعة في نظم الشعر والتأثير في نفسية سامعيه، فجمع الناس حوله بهذه الشمائل والخلال وكوّن منهم نواة كبرت فيما بعد وعظم شأنها في الجهاد.

وفي بعض المرات التقى بمجموعة من الأطفال الذين يتعلمون في مدرسة البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة فعلم أنهم يعلمونهم مبادئ النصرانية المحرفة، ويغيرون أسماءهم حتى أنه سأل أحد الأطفال عن عشيرته فقال إنه من عشيرة البابا!! وعن اسمه فقال: يوحنا عبداللّه!! فاشتكى إلى المقيم

السياسي البريطاني في بربرة مطالباً إبعاد المنصرين عن الصومال.

وحذر قومه من طاعة النصارى، وطالبهم بألا يعلموا أطفال المسلمين اللغات الأوربية -التي كانت مقرونة آنذاك بالتنصير- وحثهم على العناية بهم وتحفيظهم القرآن وتعليمهم الشريعة، وابتدأ يعد العدة للجهاد وتوحيد القبائل في الصومال، حتى لاحت فرصة وهي أن أحد القساوسة كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة فأزعجه الأذان فأطلق النار على المؤذن!! فاشتعل الغضب في نفوس المسلمين، فقاموا بهدم المركز التنصيري في ديمول ولاحقوا القس محاولين الفتك به، وحاولوا تحطيم كل المراكز التنصيرية، فأرادت بريطانيا التهدئة فقامت بترحيل كل المنصرين في باخرة إلى عدن، وتعهدت بعدم السماح لهم بالعودة، ومنع بناء كنائس في الصومال، وألا تفتح محلات لبيع الخمور، وهذا باق إلى اليوم في الصومال الشمالي فليس فيه مراكز تنصير ولا مدارس تنصيرية بفضل الله تعالى ثم بهمة هذا الرجل وأصحابه، وهذا كله يعلمنا أن المسلمين

إذا كانوا أصحاب همة عالية وعمل بنّاء فإن أحداً لا يستطيع الوقوف بوجههم.

وحدثت حادثة أخرى كانت هي الفتيل لإشعال الجهاد وهي أن أحد رجال الشرطة في بربرة هرب إلى الإمام وأعطاه مسدسه، فسمع القنصل البريطاني في بربرة بهذا فطلب من الإمام أن يرد المسدس فرد عليه الإمام رداً خشناً، وبعد شهور تلقى القنصل البريطاني رسالة من الإمام يتهم فيها الانجليز بالإساءة إلى الإسلام، وأنه يحتقر كل من يتعاون معهم، ويطالبهم بدفع الجزية!! وهنا طلب القنصل من حكومته إعداد العدة لقتال الدراويش، وهذه هي التسمية التي سمى بها الاستخراب البريطاني جماعة الإمام، وسموه هو بالملا المجنون، وكان يلقب -أيضاً- بمهديّ الصومال تشبيهاً له بمهدي السودان.

وخرج الإمام من بربرة إلى نوجال واشترى عدداً من البنادق الفرنسية، وصاحب هذا حضور بعض الجنود الأحباش إلى أوجادين لجمع الضرائب من السكان فهجم عليهم أتباع الإمام وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة وغنموا أسلاباً

كثيرة وسلاحاً إيطالياً، وهنا انتبه امبراطور الحبشة مِنليك فتحالف مع البريطانيين لضرب الحركة الناشئة.

وهنا أدرك الإمام أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد فأعلنه، وحث على الاستعداد لقتال النصارى، والصبر على الشدائد، وبهذا صار قائداً سياسياً وزعيماً دينياً معاً في منطقة الأوجادين، وابتدأ بإخضاع القبائل المجاورة لزعامته، وذلك لأن بعض رؤساء تلك القبائل لم تقبل أن تخرج الزعامة عنه، لكن عدداً من رؤساء القبائل ذوي الحس الوطني انضموا إليه.

وهذه رسالة بعث بها الإمام المجاهد توضح وضع عدد من قبائل الصومال وممالأتها للاحتلال حيث قال رحمه الله:

"نحن قوم حاصرهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات وقطعت عنهم جميع المواصلات والإمدادات الحربية والغذائية، ونحن قوم مُلئت صدورهم من الغضب والغيظ لأجل تخاذل المسلمين وتخالفهم مع كثرتهم وتعاون المستعمرين وتوافقهم مع قلتهم في بلادنا.

ونحن قوم باعهم شعبهم بثمن بخس لعدوهم، وقد أنفقت الحكومة الإنجليزية والحبشية والإيطالية والفرنسية في سبيل

ذلك مالاً كثيراً ، وانضمت إليهم بعض القبائل الصومالية التي خضعت لرعوية تلك الدول باختيارها وطوعها يقودها سلاطينها وزعمائها ، ويحرضها علماؤها على حربنا!!

ونحن قوم لا يخضعون لأعداء دينهم ووطنهم ولو كثرت جنودهم وتتابعت هجماتهم ، وتنوعت آلاتهم المهلكات ، واشتدت وطأتهم علينا ، وانضمت إلى صفوفهم أكثرية غير وطنية وأكثرية من المستخدمين الأجانب لأننا نريد أن نشتري بأموالنا وأنفسنا الجنة من اللّه تعالى... ونحن قوم لا نسمح للكفار أن يحتلوا بلادنا أو يحكموها ، ولا نتكالب على ذلك مع المستعمرين لا بعوض ولا بتهديد ، ولا نترك قوانين الشريعة وأحكامها ، ولا نجعلها خاضعة لقوانين الكفر... ونوجه لومنا إلى العلماء والقضاة الذين يهينون شريعتنا الإسلامية ويجعلونها تحت أقدام الكفرة الفجرة ...".

ثم ذكر احتلال الدول الكافرة للصومال ثم قال:

"ثم إن الدول المذكورة بدأت تبذل أموالاً تافهة لزعماء القبائل ورؤساء العشائر لتشتري منهم دينهم ووطنهم وشرفهم وعزهم بتلك الدريهمات ، وكأن الزعماء لا يفهمون مرارة

الاسترقاق والاستعمار، ولا يدركون ما سيحصل لهم ولشعوبهم من الذل والخزي والهوان ...

ولا يفهم هؤلاء الأغبياء أن المرتبات والمشاهرات -أي الرواتب الشهرية- مثلها كمثل ما يعطى للطير والحيتان لاصطيادها.

ومن جهة أخرى فتح المبشرون مدارس في البلاد ليغيروا من دين الشعب ...

ونشأ أيضاً في المدن التي تحتلها تلك الدول الأربع عادة شرب المسكرات وتناول المخدرات، وفتحت العاهرات أبوابها دون خجل، فلما علمت ورأيت ذلك ثارت في نفسي شدة الغيرة الإسلامية، واشتعلت في قلبي الجذوة الوطنية، والتهبت روحي غضباً وكادت تخرج من الهيكل الجسماني، فبدأت أخطب في المساجد والمحافل وألقي بين الأمة خطباً حماسية دينية...

ولا أزال أحذر الشعب وأناديه لكن لا حياة لمن أنادي ولا حكمة لمن أحذره، وقد قالوا لي لما نبهتم على تقديم أوطانهم للمبشرين وعن تجنيد رجالهم للعدو: إنك تريد أن تقطع أرزاقنا وتهلكنا بالفقر والجوع!!

إلى آخر ما وصف به حال بعض القبائل في الصومال آنذاك.

والعجيب أنه لما قام يدعو الشعب إلى الجهاد قال بعض مَن لا علم عنده:

الجهاد وقته متأخر، وسنجاهد في أوان الجهاد عند خروج المهدي المنتظر فعندئذ تكون لنا العصي بنادق ومدافع وستكون آلات الكفار عِصِيّاً.

أما إذا جاهدنا الآن وليس معنا آلات حربية فلا يكون لنا إلا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذا من الفهم الأعوج وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذه رسالة قد بعث بها الإمام المجاهد إلى السلطان عثمان محمود سلطان ميجرتين، تبين وعيه وفهمه وحسن تصوره للجهاد إذ قال بعد البسملة والحمدلة والصلاة على النبي e :

"إني أبعث لكم كتابين تباعاً تنفيذاً لقول الصادق المصدوق e : "الدين النصيحة" وبينت فيهما ما يفترضه الواجب الديني لمعالجة المطامع المسلطة على بلادكم من دولة إيطاليا

الكافرة، الظالمة القاسية، ووضحت لعظمتكم أن الله تعهد بنصر المؤمنين، وتكفل بألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً إذا قاموا بتأييد دينهم والسير على سنن قرآنهم فإنه قال: L U T S R Q PM[1]، وقال في سورة الأنفال: Mوَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ L[2]، وعلى هذه السنن نهج السنوسي مع إيطاليا في طرابلس الغرب فإنه هزمها وقهرها وغنم ما لا يُحصى من الذخائر والعتاد الحربي، ولم يتركه هملاً بل صار يقاتلهم به بعد أن استعد لكل ما يلزم.

وعلى هذه القاعدة أيضاً سلك سلطان الريف في المغرب الأقصى فإنه غضب لله وخرج منفرداً يقاتل في سبيل الله، وما زال يسير في وادي الإخلاص بحزم وحكمة وثبات حتى صار يقود اليوم مائتي ألف مقاتل مزودين بالبنادق والمدافع الضخمة والرشاشات السريعة التي غنمها منهم وصار يستعملها ضدهم

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

حتى أرهب دولتي فرنسا وأسبانيا ودك قواتهما العظيمة وكاد يسحقهما سحقاً.

وكذلك مثل سلطان باشا الأطرش في الديار الشامية مع دولة فرنسا.

وعلى هذه الخطة يسير الحاكم المسلم الحكيم، وكل من ولاّه الله حاكماً على طائفة من المسلمين واجب عليه أن يتزود ويستعد بما يرفع عن أمته الويل، وإذا لم يفعل فإنه يكون عاصياً ومسؤولاً يوم الفزع الأكبر أمام رب العزة ..." ثم حثه على جمع الرجال للجهاد.

وهكذا دعا جمعاً من رؤساء القبائل والعلماء والشيوخ للجهاد ضد المحتل الغاصب، واعتمد في جهاده على عواملَ عدة منها:

١. تنظيم الجيش وتدريبه.
٢. جَعْل الصفوة الممتازة بإيمانها وجهادها أساساً لجيشه.
٣. الاعتماد على التجار العرب في تهريب السلاح من ميناء بربرة وزيلع إلى معسكراته.

٤. الاستفادة من ذخائر الجيش المصري التي كانت في المخازن في هرر وتهريبها إلى داخل الصومال.
٥. بناء مخازن في الجبال للأسلحة لا يعرفها إلا القليل.
٦. بناء الحصون في أماكن مهمة خاصة داخل الأوجادين.
٧. حفر عدد من الآبار على طول الجبهة الإيطالية والحدود البريطانية إلخ ...

فلما استعد هذا الاستعداد أعلن الجهاد في سبيل الله ضد المحتلين من الانجليز ومن يعاونهم من المسلمين.

بداية التصادم مع البريطانيين:

أرسلت بريطانيا حملة بقيادة الكولونيل سواين، وجهز الأحباش جيشاً قوامه خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية همفري تراس التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين، وكانت مهمة الأحباش قطع الإمدادات عن المجاهدين من شعب الأوجادين وغيره، وكُلفت إيطاليا -التي كانت قد استقرت في بعض أجزاء القرن الإفريقي- بالضغط على سلطان ميجرتين المسلم!! لمنع وصول أي مساعدات للإمام ولمنعه من الهرب إلى

الساحل، لكن الإمام عرف كل هذا وقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية في أوائل يناير سنة ١٩٠٠م/ ١٣١٧هـ وحارب المجاهدون ثلاثة أشهر وأظهروا بطولات عظيمة، وأجبروا البريطانيين وغيرهم على التراجع، واكتفت بريطانيا بوضع قوات في برعو، واحتل الإمام بعض المواقع.

أرسلت بريطانيا حملة ثانية بقيادة الكولونيل سواين الذي تحرك في ١٣٢٠/٢/١٧هـ/ ٢٦مايو سنة ١٩٠٢ ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الإفريقية بقيادة الكابتن أسبورن مع ٥٠٠ فارس من الصوماليين بقيادة موسى فارح من منطقة هود، ويا للعار من انعدام الولاء والبراء عند هؤلاء، وتمركزت قوات المجاهدين في إقليم بارن وكانوا حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وانتهت المعركة بمقتل مائة جندي بريطاني ولله الحمد والمنة وغنم المجاهدون غنائم جيدة، وقال الكولونيل سواين معلقاً على ما رآه من عزيمة الصوماليين في الجهاد:

"إني لم أكن أعتقد أن الصوماليين يحاربون من أجل العقيدة والمبدأ حتى رأيت الدراويش في "فرطدن" يهتفون الله

الله، يقفزون نحونا على رؤوسهم العمائم البيض، لا يرهبون مصير إخوانهم الذين قتلناهم أمامهم برشاشاتنا، ولا يفكرون في عائلاتهم التي تركوها من ورائهم".

استعانت بريطانيا بإيطاليا، وبالحبشة فوافق الإمبراطور منليك وأرسل خمسة آلاف مقاتل، تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة، وكان قائد البريطانيين مانتج -بعد عزل الكولونيل سواين الذي أخفق في حروبه مع الإمام- وابتدأت الاشتباكات بين الطرفين ١٣٢٠/١٢/٢٥ - ١٥مارس١٩٠٣، وهزم الله البريطانيين الذين قتل منهم ٢٩، ومن حلفائهم ١٨٧، وجُرح ٢٩، وقد استمرت المعركة من السادسة صباحاً حتى الرابعة مساء أُجبر بعدها البريطانيون وحلفاؤهم على الانسحاب، وقد قتل من جيش الإمام عدد كبير لا يُدرى كم هو، وأخفقت الحملة الثالثة.

وعلى إثر هذه الانتصارات ارتفعت معنويات المجاهدين وقويت عزائمهم وكثر عددهم، والتفوا حول قائدهم الإمام محمد بن عبدالله حسن، فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال إيجرتون الذي أبحر من بومباي في

٢٧ يونيو سنة ١٣٢١/١٩٠٣هـ، ووضع خطة محكمة للقضاء على الإمام أو أسره، وطالبت الحكومة البريطانية امبراطور الحبشة المشاركة في الحملة، ودفعت له خمسة عشر ألف جنيه استرليني ليتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وهُزم الإمام واستشهد من قواته ألف مجاهد، لكنه لم يُؤسر.

وبعد المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على الإمام أن تتنازل له عن أجزاء من المحمية البريطانية والإيطالية، وأن تعترف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وأن يودع مبلغاً من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيرته وسلوكه وتسليم أحد أبنائه رهينة ونزع سلاح أتباعه فرفض الإمام، وحُق له أن يرفض فالخديعة ظاهرة في هذا العرض الصليبي.

وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة قبل ذلك مع إيطاليا تعترف فيها بريطانيا بالصومال الإيطالي مقابل اعتراف إيطاليا بالصومال البريطاني وسيطرة بريطانيا على جوبا وكينيا.

وطلبت بريطانيا من فرنسا أن تغلق موانئ وطرق مستعمراتها "مستخرباتها" في إفريقيا في وجه الإمام حتى لا تأتيه الأسلحة منها.

طلب الإمام من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته عبر أرضه فكاد أن يوافق لكن الانجليز أنذروه بأنهم سيحتلون بلاده لو صنع، فرفض طلب الإمام، الذي اتجه إلى الساحل بقواته في منطقة أليج حيث يمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، لكن الانجليز لم يتركوه فهاجموا قلعته التي سقطت تحت قوة نيرانهم، وتنسيقهم مع الإيطاليين، وتكبد الانجليز قتل ثمانية ضباط وعشرين من الجند الوطنيين الخونة وسبعة عشر صومالياً غير نظامي، أما خسائر الإمام فقد بلغت ألفي شهيد!! وأسر منهم ٣٠٤، واستولى البريطانيون على ٤٧٣ مسدساً وبندقيتين، وأعيرة نارية، ومائتين وثلاثة وعشرين حصاناً، و ٣٦٤١٥ رأساً من الماشية، وهي خسائر هائلة، لكن الإنجليز خسروا خمسة ملايين جنيه في هذه الحملة وهو مبلغ هائل جداً آنذاك، وبعض

المؤرخين يرى أن خسائر الإمام البشرية قد بولغ في تقديرها فهي أقل من ذلك، والله أعلم.

بعد هذه المعركة جنح الإمام للموادعة حتى يسترد أنفاسه ويعوض خسائره، وقبل وساطة الإيطاليين لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش في اتفاق ستالوزا سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ويبدو أن إيطاليا خافت على مستعمرتها أن ينتفض فيها الصوماليون فسارعت للوساطة بين الإمام وأعدائه، وكان من بنود الصلح ما يلي:

١. عدم تدخل الإمام في شؤون القبائل الصومالية التي تحت حكم بريطانيا.
٢. ألا يشتري جنوده السلاح، وألا يقوي الإمام الجيش.
٣. تحديد أماكن المجاهدين في نطاق إقليم واحد معين بين رأس جاراد ورأس جابي، وهي من مناطق النفوذ الإيطالي، وفي نوجال، وبين سلطنتي هوبيا وميجرتين.
٤. رفع الحصار عن الإمام وتمكينه من شراء ما يحتاجه إلا السلاح، وألا يتجر بالرقيق.
٥. الحرية الدينية للإمام وأتباعه.

٦. أن يحكم الإمام أتباعه بنفسه.

٧. إبلاغ المجاهدين الحكومة الإيطالية بكل ما يمكن أن يعرض أمنهم للخطر.

٨. عقد معاهدة صلح بين الإمام وبين القوى الصليبية الثلاث: الحبشة وإيطاليا وإنجلترا.

ـ استفاد الإمام من مدة الصلح هذه التي استمرت إلى سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، واستطاع أن يجذب إليه بعض القبائل والعشائر، وكانت بريطانيا تحاول أن توغر صدر القبائل على الإمام حتى يوقعوا بينه وبينها، واتصلت بالدولة العثمانية عن طريق قنصلها هنالك محاولة أن تقنعها بالاتصال بالمشايخ في مكة حتى يصدروا فتوى تنكر فيها زعامة الإمام على قبائل الصومال لكنهم أخفقوا.

وهنا لجأ الانجليز والإيطاليون إلى حيلة ماكرة حيث استغلوا طرد الإمام للحاج عبدالله شجاري -أخلص أتباعه ورفيق الجهاد، وممثله في المفاوضات- من حركته، فنظم القنصل الإيطالي رحلة لوفد فيه مشايخ كبار وأوكلوا رئاسته للحاج عبدالله شجاري، وذهب الوفد إلى مكة في يوليو سنة

١٣٢٦/١٩٠٨هـ واشتكى إلى شيخ الطريقة الصالحية الصوفية التي يتبعها الإمام وأتباعه، وكذلك ذهب وفد من زعماء قبائل الصومال إلى مكة للغرض نفسه، وكانت حجة الوفدين أن الإمام قام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية!! واتهموه باتهامات لا تقبل عقلاً مثل شرب الخمر!! والمجون، والعبث بالنساء، وحب سفك الدماء!! فأرسل شيخ الطريقة الصالحية في الحجاز محمد صالح خطاباً إلى الإمام، لكن الوفد استطاع أن يزور الخطاب برشوة الكاتب فصار خطاباً متضمناً إعلان البراءة من الإمام وصنيعه.

وانتهز الإنجليز هذه الفرصة فقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فأثر ذلك في أتباع الإمام وزُعزعت ثقتهم فيه، فما كان من الإمام إلا أن ألف رسالة بعنوان "قمع المعاندين" وأرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية في مكة وإلى السلطان العثماني، لكن حدث انقسام بين قادة المجاهدين، واشتدت العداوة بينهم جراء ذلك كله، وعقد بعضهم اجتماعاً قرروا فيه عزل الإمام أو قتله

وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد أو إنهاء الجهاد وحَلّ الحركة، لكن الإمام قبض على قادة هؤلاء وأعدمهم.

وهنا قررت بريطانيا استغلال الفرصة وعقد صلح جديد مع الإمام عارضة عليه خمسين ألف جنيه استرليني شهرياً إذا حسن سيره وسلوكه!! لكن الإمام اشترط تسليم عدوه الحاج عبدالله شجاري، ودفع بعض التعويضات، والقبض على الصوماليين الذين أثاروا المشكلات الآنفة الذكر، ففشلت المفاوضات.

الجلاء عن الصومال:

قررت بريطانيا إخلاء الداخل وتسليمه إلى القبائل وتسليحها والاستقرار في الساحل فقط في المدن: بربرة وزيلع وبلهار، فلما حدث هذا انقضت قوات الإمام على أعوان البريطانيين من الصوماليين ففتكوا بهم، وعمت الفوضى وبدأت الحرب الأهلية، وتدمرت طرق القوافل، وانقطعت سبل التجارة.

وانتقل الإمام من مناطق الإيطاليين التي فُرضت عليه في معاهدة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م إلى مناطق النفوذ البريطاني التي ارتحل

عنها البريطانيون، وبنى عدداً من الحصون والقلاع أهمها حصن تاليح الذي ظل مقراً له إلى سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، واحتل جنوده المعسكرات البريطانية في الصومال، وبسبب ما جرى من الفوضى قررت بريطانيا إعادة النظر في قرارها، وكونت قوة للشرطة تحفظ بها الأمن في داخل البلاد، وأرسلت إيطاليا قوة احتلت مقديشو حتى تحاصر الإمام من الجنوب، وأصدرت أوامرها لسلطان ميجيرتين الصومالي بمهاجمة الإمام!! لكن الإمام انتصر على القوة المشتركة، وكان ذلك في ١٣٢٩/٨/١٩هـ ١٥أغسطس سنة ١٩١١، وهذا كله يوضح أن الإمام ما زال في يده مفاتيح القوة في الصومال.

وبعد ذلك كتب الجنرال ريتشارد كورنفيلد القائد العام للقوات البريطانية المسلحة في محمية الصومال لاند البريطانية "شمال الصومال" رسالة إلى الإمام المجاهد كلها تهديد ووعيد وفيها:

"لقد نصحناك وأنذرناك من سوء العاقبة ولم تقبل نصيحتنا، ولهذا فقد تكون عرضة لهجوم حكومة أكبر منك قوة، وسننسفك نسفاً أنت ومن معك إذا لم ترجع عن غيك

وتخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن دولة صاحبة الجلالة عظيمة جداً ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئاً، فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع عليك المصيبة، وتندم على أعمالك السيئة، والموت ينتظرك متى أصررت على عنادك".

فأجابه الإمام إجابة تقطر عزة وشرفاً وجلالة:

"من السيد محمد عبدالله حسن قائد قوات الدراويش الإسلامية إلى الجنرال ريتشارد كورنفيلد قائد قوات الشيطان!!:

قد اطلعت على رسالتك، وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة، واعلم أن قواتك التي تفاخرون بها لا تساوي لدي شيئاً، وأعلمك أيضاً أنكم إذا كنتم تحاربون بقواتكم الهائلة فإنني أقاتلكم بنيتي الوطنية، وإيماني القويّ، وعزيمتي المتينة التي لا تعرف الملل، مهما تكن الظروف فلن أستسلم ولن أكون للشرك عبداً" اللّه أكبر.

مصرع القائد الانجليزي:

وفي ١٣٣١/٩/٦/ ٩ أغسطس سنة ١٩١٣ حدّثت معركة ضخمة بين الإمام والإنجليز بقيادة ريتشارد كورنفيلد في دلما

دوبي، وكانت القوات البريطانية مدعمة بقوات من الهند وعدن والصومال وزنجبار وكينيا، وانتهت بهزيمة الإنجليز ومقتل كورنفيلد، ونشرت الصحف البريطانية خبر المعركة بعنوان: "كارثة مروعة لقواتنا في الصومال" وأنشأ الإمام قصيدة بعنوان مصرع: ريتشارد كورنفيلد، وأعلنت وزارة المستعمرات البريطانية الحداد على الجنود والضباط القتلى والأسرى وقائدهم الجنرال المقتول، وتراجعت القوات الإنجليزية مذعورة إلى الساحل، وحصل المجاهدون على غنائم كثيرة، وانتشرت الأخبار في كل أنحاء الصومال، وانضم إلى المجاهدين عدد كبير ممن كان تحت حماية البريطانيين، وخاف الإيطاليون من المجاهدين الذين استولوا على برعو، وبربرة، وأرسلت بريطانيا قوة نجحت في إيقاف تقدم المجاهدين لكن وقعت الحرب العالمية الأولى وانشغلت انجلترا بها.

وفي المحرم سنة ١٣٣١هـ/ ديسمبر ١٩١٣ تولى على الحبشة الإمبراطور ليج ياسو الذي أسلم، وأرسل إلى الإمام مساعدات مالية وأسلحة، وأرسل له أحد الفنيين الألمان إلى حصن تاليح لإصلاح الأسلحة الأوروبية.

واتصل الإمام بالأتراك في عدن عام ١٩١٦/١٣٣٥ وطلب حمايتهم، وأعلن الخضوع للخلافة ولسلطنة السلطان محمد رشاد الخامس، لكن الدولة العثمانية كانت -آنذاك- أضعف من أن تنصره.

واجتمع بالألمان.

وفي ذلك الوقت أُبعد الامبراطور ليج ياسو عن الحكم بمؤامرة، وجيء بالامبراطور هيلاسي لاسي ليقطع المساعدات عن الإمام.

وراسل الانجليز الإمام طالبين الصلح فرفض بإباء عرضهم، وكان قد اجتمع بالقائد العام للقوات البريطانية ونائب الملكة في الهند وأغروه بأن يكون ملكاً على الصومال، فرفض كل تلك العروض مبيناً أنه لم يكن يوماً يريد الملك، وأن هدفه هو تطهير بلاده من الاحتلال ولا يبالي بعد ذلك أعاش أم مات.

وواصل احتلال المواقع الحصينة منتهزاً فرصة انشغال الانجليز بالحرب العالمية الأولى ضد الألمان والأتراك، ولكن بريطانيا لم يقر لها قرار، وعُقدت اجتماعات في لندن وروما

والحبشة لمحاصرة الجهاد الصومالي الذي وجد طريقه إلى قلوب الصوماليين وخشيت بريطانيا من تأثر مستخرباتها الأخرى.

وفي نهايات الحرب العالمية الأولى وبعد أن مالت النتائج لصالح الإنجليز وحلفائهم أرسل الانجليز حملة حربية من الهند للحفاظ على موانئ الصومال واسترداد ما فقدوه من مدن، ووقعت معركة انهزم فيها جند الإمام وتراجعوا إلى الداخل.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قرر البريطانيون إنهاء المعركة مع الإمام، وأرسلوا الجنرال هوسكنز إلى بربرة لتقدير الموقف العسكري، ومن ثم قرر البريطانيون إرسال حملة من الجو -لأول مرة- والبر والبحر، ونسقوا مع الإيطاليين وزعماء القبائل الصومالية الموالية لها، وفي ١٣٣٨/٤/٢٩هـ /٢١ يناير ١٩٢٠ ابتدأت القوات الجوية بضرب مواقع الإمام في ميديشي، واستمر القصف ثلاثة أيام جواً وبراً، ومات عدد كبير من المجاهدين بفعل دنيء من الانجليز ألا وهو تسميم الآبار، وانسحب الإمام إلى حصن تاليح، فأرسلت بريطانيا ثلاث طائرات حلقت على ارتفاع منخفض وأحرقت كل مواقع

المجاهدين، وأسرت بعض زوجات وبنات الإمام وبعض قادته، واستطاع الإمام الفرار إلى منطقة باخيري، ومن ثم استقر في منطقة هي، وانضم إليه من بقي من رجاله المخلصين حتى بلغوا ألفاً ومعهم بعض الأسلحة، وهنا أرسل إليه الحاكم آرثر طالباً منه الاستسلام فرفض، ثم جرت جولات بينهما لم تسفر عن شيء.

ولما اشتد الحصار على الإمام انتقل إلى الأوجادين في الحبشة نازحاً من الصومال البريطاني طالباً الحماية لكن الأحباش قبضوا على رجاله، ومات الإمام في ١٣٣٩/٣/١١هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ متأثراً بمرض حَلّ به، ودفن في إيمي، وحاول الإنجليز أن يحصلوا على رأسه ليرسلوه إلى بريطانيا -كما فعلوا بالمهدي في السودان- لكن أتباع الإمام أبقوا مكان قبره سراً.

وهكذا انتهت قصة هذا الجهاد الرائع الطويل الممتد لأكثر من عشرين سنة حاكياً بطولة الإمام وأتباعه، وأن المسلم إن تعلق بالجهاد فإن أقوى القوى على ظهر الأرض ستقف عاجزة أمامه.

عوامل هزيمة الإمام:

هناك عدة عوامل تضافرت لهزيمة هذا البطل منها:

١. العلة الدائمة في افريقيا السوداء آنذاك وهي ضعف عقيدة الولاء والبراء عند كثير من المسلمين التي أدت إلى تعاون بعض زعماء المسلمين مع الكفار ضد المجاهدين، وهذه بلية كبيرة، وتمثل هذا في حالة الصومال بوقوف زعماء هرر وهوبيا وميجرتين ضد الإمام، وبعض زعماء القبائل، وقد وشوا به عند البريطانيين ونصحوهم باعتقاله!! وقد تألبت كثير من القبائل عليه حتى اجتمع مرة ضده خمسون ألفاً منهم!!

٢. قِصَر نظر بعض قادة المجاهدين الذين استجابوا لمكيدة الصليبيين وفتتوا صف الجهاد بقبولهم الذهاب إلى مكة واستصدار ما يضعف موقف الإمام أمام الصليبيين، وكان ذلك بسبب الأحقاد وسوء النظر.

٣. القوة الحربية الهائلة لدى الانجليز خاصة سلاح الطيران الذي حسم المعركة في النهاية، وتحالف الانجليز مع الإيطاليين والأحباش ضده.

٤. استخدام الإمام العنف في بعض الأحيان ضد بعض زعماء القبائل مما أثار حفيظتهم، وجنح بهم إلى أعدائه، وكان لقلة الوعي في القبائل أثر كبير في معاداة الإمام.

٥. افتقاد الإمام الدعم من كل المسلمين خارج الصومال الذين كانوا مشغولين بأنفسهم وأحوالهم فلم ينجدوه ولم يلتفتوا إليه.

٦. وجود الجواسيس والخونة في صفوف الصوماليين، وكانوا يدلون الانجليز على عورات جيش الإمام.

وقد دعا الإمام الصوماليين إلى قتلهم، وما أشبه صنيعهم هذا بصنيع العملاء والجواسيس والخونة اليوم في فلسطين والعراق وأفغانستان.

٧. كان الإمام يتبع الطريقة الصالحية الصوفية التي تلقاها في مكة، بينما كان أغلب مشايخ الصومال يتبعون الطريقة القادرية، وهذا أدى إلى مناوئة المشايخ له وإضعاف قوته ولو اجتمعوا عليه لحصل خير كثير، لكن ما العمل وهذه علة يعاني منها المسلمون في كل زمان ومكان.

ومع كل تلك العوامل فقد كان لجهاد الإمام محمد بن عبدالله حسن أثر جليل، وتجلى فيه التالي:

١. قوة هذا الإمام وشجاعته وإباؤه، فقد تمالأت عليه قوى الإنجليز والإيطاليين والأحباش وطلبوا منه الصلح مراراً، وخضعوا عنده، وفشلت خمس حملات حربية وُجهت إليه من أقوى قوة موجودة على ظهر الأرض آنذاك، ورفض الاستسلام لهم حتى قضى نحبه عزيزاً كريماً.

٢. إن المسلم الذي يعقد العزم على مواجهة الباطل وأهله يُحدث أثراً عظيماً في أعدائه، ويحيرهم بصموده وعزته، وينفع الله به، فهذا الإمام جاهد أعداءه عشرين سنة في أحوال لا تسعف، وأوقات الإدبار في العالم الإسلامي لا الإقبال ومع ذلك انظروا كيف استعصى على أعدائه ودوخهم.

ولا أعلم لعمله نظيراً في العصر الحديث إلا ما كان من الأمير الكبير محمد عبدالكريم الخطابي.

٣. إن المسلم الصالح الملتزم بدينه الواعي لمتطلبات زمانه ذا العزيمة القوية هو العُدة الحقيقية لبلاده وقومه، وهو الأمل لهم بعد الله تعالى، أما ضعاف الإيمان والعزيمة والتطلعات فهم بلاء على أقوامهم وبلادهم، وقد ارتقى وعي هذا الإمام في أحوال كثيرة، واستطاع أن يتعامل مع معظم القوى التي كانت حوله آنذاك بحنكة وحسن تدبير، وإن خانه التوفيق ففي أحوال قليلة.

٤. جمع الإمام بين التربية والجهاد والزعامة أي بين القوتين السياسية والدينية، وكان هذا أمراً نادراً في زمانه، وكان من توفيق الله تعالى له، فقد تيسير له شيء لم يتيسر لأكثر المصلحين في زمانه وقبله وبعده.

٥. استطاع أن يجمع بين معظم قوى الشعب الصومالي ويوجهها لحرب أعداء الإسلام، وهذا -وإن كان في مدة قصيرة ولم يَطُل- لم يحدث في الصومال قبله منذ زمن الإمام أحمد بن إبراهيم الذي ذكرته في البداية.

٦. حارب العادات السيئة المتفشية في الصومال مثل مضغ القات، والتدخين، وقام بمنع الاختلاط، وفرض الحجاب.

٧. اهتم بالنساء، وأصلح حجابهن وضبطه، وعلمهن فنون القتال حتى كان منهم عدة فارسات.

٨. كان الإمام هو الممهد الحقيقي لاستقلال الصومال الذي حدث بعد وفاته بأربعين سنة تقريباً ويكفيه هذا شرفاً في الدنيا وجزاءً في الآخرة إن شاء اللّٰه.

وفي النهاية أقول إن الإمام المجاهد محمد بن عبداللّٰه حسن يصلح أن يكون رمزاً للصوماليين اليوم يستلهمون منه العزة والقوة والشجاعة والإباء حتى يقفوا أمام أعدائهم المتربصين بهم شراً اليوم، واللّٰه الموفق.

فهرست الموضوعات